المحاضرة الأولى

قيام الدولة العثمانية

يشكل تاريخ الدولة العثمانية في التاريخ؛ حيث استمرت ستمائة وثلاثاً وعشرين سنة، منذ أن قامت على يد الأمير عثمان بن أرطغرل الذي تنتسب إليه الدولة عام ١٢٩٩ وحتى زوالها عام ١٩٢٢ .

وكان قيام الإمارة العثمانية وتحولها إلى دولة مترامية الأطراف مبنياً على عقلية عسكرية فذة ساعدتها في توسيع أراضيها ، وفي القضاء على كثير من الدول التي نافستها بعد أن حلت محل الدولة السلجوقية . كما أن انتقال العثمانيين إلى قارة أوروبا الشرقية والوسطى كان إيذاناً بتغيير خارطة العالم السياسية والجغرافية بعد أن تغير بهم مفهوم التاريخ ، ليؤرخ للعصر الحديث بفتح القسطنطينية الذي تيسر للسلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣ .

وقد استمرت الدولة العثمانية في توسيع رقعة الأراضي الإسلامية وانتقلت جيوشها من غزوة لأخرى ، ومن فتح إلى آخر، حتى تبوأت مكانة مرموقة بين الدول ، وأصبحت القوة العظمى، التي تحسب الدول المسيحية حسابها ، وعملت للقضاء عليها بمختلف الطرق والأساليب، ونظمت لذلك العديد من الحملات والدولة العثمانية صامدة شامخة كالطود العظيم. ولم يكن ليتسنى لها ذلك الاستمرار والصمود، إلاّ من خلال التمسك بالإسلام، مبدأً للحياة ، ونظام حكم في السياسة وإدارة البلاد .

وتشكلت مع مرور الأيام وتوالي الفتوحات ، أنظمة ثقافية واقتصادية واجتماعية ، خاصة بالمجتمع العثماني ، انبثقت من أساسين اثنين : أساس إسلامي ، وآخر عثماني .

أما الأساس الإسلامي ، فكان ينظّم حياة الفرد والجماعة ، ويسير المجتمع وفقه ضمن الإطار العام المحدد في الشرع الإسلامي الحنيف . وهو الذي كان ينطلق منه العثمانيون .

وأما الأساس الثاني الخاص بالمجتمع العثماني ، فهو الذي تشكل مع مرور الأيام من خلال المستجدات التي طرأت على الساحة الثقافية والسياسية والاجتماعية ، وأصبحت عادات متبعة في المجتمع . وكان معظمها في إطار الأساس الأول غير خارج عنه ، ولا سيما إذا استُثني العصر الأخير من حياة الدولة العثمانية .

ويمكن تقسيم التاريخ العثماني إلى ثلاث مراحل :

الأولى : عصر الفتوحات التي بدأت مع نشأة الدولة واستمرت إلى عهد السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦ ، وهو العصر الذي وصلت فيه الدولة العثمانية إلى قمة مجدها وأوج حضارتها.

الثانية : عصر الركود والتوقف ، والذي بدأ من نهاية عصر سليمان القانوني حتى معاهدة "قاينارجه" عام ١٧٧٤ التي بموجبها تنازلت الدولة العثمانية عن كثير من الأراضي لصالح روسيا .

الثالثة : عصر الضّعف والانحطاط ، والذي استمر من معاهدة "قاينارجه" التي يعدها الباحثون المختصون في التاريخ العثماني حكماً بالانتحار على الدولة العثمانية ؛ وحتى زوال تلك الدولة عام ١٩٢٢ ، إذ قامت على أنقاضها الجمهورية التركية .

أصل العثمانيين ومواطنهم

في منطقة ما وراء النهر والتي تسمى اليوم بـ (تركستان) والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً الى بحر قزوين غرباً ، ومن السهول السيبرية شمالاً الى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً ، استوطنت قبائل الغز تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك .

تحركت تلك القبائل في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، في الانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة . وذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب التي ساهمت في هجرتهم ؛ فالبعض يرى أن ذلك بسبب عوامل اقتصادية ، فالجدب الشديد وكثرة النسل جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصلية ، في حين رأى القسم الآخر أنه جاء نتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيز خان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى ، فاضطر سليمان شاه جد عثمان إلى النزوح عام ١٢٢٠م مع قبيلته الى بلاد الأناضول ، وبعد وفاته عام ١٢٣٠م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل الذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول ، وكان معه حوالي مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس ، وعندما كان أرطغرل والد عثمان فاراً بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها اربعمائة عائلة من ويلات الهجمة المغولية ، فاذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء ، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين مسلمين ونصارى وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطي ، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة اخوانه في الدين والعقيدة ، فكان ذلك التقدم سبباً في نصر المسلمين على النصارى ، وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش السلجوقي هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته ، فأقطعهم أرضاً في الحدود الغربية للأناضول بجوار المناطق الحدودية للدولة البيزنطية ، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب البيزنطيين ، وكسب السلاجقة بذلك حليفاً قوياً ومشاركاً في الجهاد ضد البيزنطيين ، ومنح السلطان السلجوقي لأرطغرل لقب غازي ، وقامت بين تلك الإمارة الناشئة وبين السلاجقة علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم ، واستمرت تلك العلاقة طيلة حياة أرطغرل ، وعندما توفي عام ١٢٨٨ خلفه في الحكم ابنه عثمان الذي سار على سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الدولة البيزنطية .

عثمان مؤسس الدولة العثمانية

في عام ١٢٥٨ ولد لارطغرل ابنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية ، وهي السنة التي غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ونتيجة للاضطرابات التي كانت تعاني منها تلك المنطقة أحسن عثمان الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه استغلال تلك أحداث في توسيع مناطق سيطرته على حساب الدولة البيزنطية ، فمنذ توليه السلطة شرع الغازي عثمان في فتح الحصون والبلدان ، ففتح عام ١٢٨٦ حصن كته ، وحصن لفكه ، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار ، وغيرها ، ثم توج تلك الفتوحات بالسيطرة على يني شهر عام ١٢٩٩ واتخذ منها عاصمة لإمارته الناشئة .

خضعت الدولة السلجوقية منذ الاجتياح المغولي للأناضول لسيطرة الدولة الإليخانية ، وكانت قونية عاصمة السلاجقة تعاني من تسلط قادة المغول على الدولة وسلاطينها ، وقد استمر ذلك الحال حتى وفاة السلطان مسعود آخر سلاطين السلاجقة عام ١٣٠٨ ، وعلى أثر تلك التطورات أعلن الأمير عثمان استقلال الإمارة العثمانية ، وبدأت الحملات العثمانية تأخذ منحنى آخر ضد القلاع والمدن البيزنطية ، إذ اتَّبع عثمان خطة منظمة ومحكمة استهدفت الوصول إلى البحر الأسود وبحر مرمرة، وقدر عثمان غازي الموقف المحيط به خير تقدير؛ فكان ملمّاً بالأوضاع العامة للإمبراطورية البيزنطية المتداعية ، وأتقن تهديدها من خلال البحرين: الأسود ومرمرة . وسعى إلى فصل أراضيها بعضها عن بعض ، وجعْلها متداخلة ريثما يمكنه قطْع الصلة بين تلك المناطق.

وسرعان ما وصلت القوات العثمانية إلى خليجي إزميد وكمليك ؛ مما أسفر عن تقطيع الأراضي البيزنطية الموحدة إلى ثلاث قِطع مختلفة. وكانت مدن إزميد وإزنيق وبورصة من تلك الأراضي البيزنطية الواقعة في الأناضول ذات أهمية

استراتيجية وعسكرية كبيرة جعلتها تستعصي على الوسائل العسكرية المتاحة لعثمان غازي ، مما اضطره إلى بناء حاميات له مقابل تلك المواقع تعزلها عن العالم الخارجي . وقد استمر حصارها سنوات عديدة إلى أن تمكن، من بعده ابنه أورخان غازي من الاستيلاء عليها الواحدة تلو الأخرى .

المحاضرة الثانية

أورخان بن عثمان ١٣٢٧ – ١٣٦٠م

نظم أورخان عقب توليه الحكم شؤون دولته الداخلية، وأسس جيشاً نظامياً بعد أن كان والده يعتمد على جيش من المتطوعين، وزاد عدد هذا الجيش وحرص على تزويده بثقافة جهادية تضمن له التفوق فيما يخوض من معارك، واستهل فترة حكمه بفتح مدينة نيقوميديا (أزميت الحالية) ١٣٢٧م وهي من أهم المدن البيزنطية في آسيا الصغرى، ثم استولى على مدينة نيقيه (أزنك الحالية) عام ١٣٣٠م .

توجه أورخان بفتوحاته ضد البيزنطيين لكنه انتهز الفرص للاستيلاء على الإمارات الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى، فانتهز الصراع على العرش في إمارة قره سي بعد موت أميرها وقام بضمها إلى أملاكه عام ١٣٣٦م، ثم تفرغ أورخان للبناء الداخلي لتكتمل دعائم دولته، ثم واتته الفرصة في أواخر أيامه لعبور البسفور والدردنيل إلى الجانب الأوربي عندما حدث صراع على العرش البيزنطي واستعان كونتاكوزين Contacuzene باورخان لمساعدته ضد خصمه المدعوم بالقوات الصربية والبلغارية، فاستجاب له عام ١٣٥٢م ومكنه من العرش وتزوج من ابنته تيودورا، ثم تباطأت القوات العثمانية في الانسحاب واستولت القوات العثمانية على قلعة تزيمب Tzympe على الشاطئ الأوربي لخليج غاليبولي واتخذها كرأس جسر لنقل الجنود العثمانيين إلى الجانب الأوربي واستغل العثمانيون انهيار أسوار غاليبولي وفرار أهلها منها إثر زلزال ضرب المنطقة، فدخلتها القوات العثمانية ورفضت مغادرتها، واتخذتها قاعدة لها، فانقلب

حلفاء الأمس أعداء اليوم. ومن غاليبولي بدأت التوسعات العثمانية في البلقان، وعندما وصل حنا الخامس إلى حكم القسطنطينية هادن أورخان واعترف بفتوحاته في البلقان مقابل تأمين وصول المؤن والغذاء إلى القسطنطينية.

ومن أجل تقوية رأس الجسر العثماني في أوربا نقل العثمانيون مجموعات من بدو الأناضول المسلمين إلى أوربا، وأسسوا لهم قرى تركية جديدة، قسمت تقسيماً إداريا عسكرياً إلى ميمنة وميسرة ووسطى، وكل منها تحت قيادة سيد غازي تحت قيادة سليمان بن أورخان، لكن موت سليمان بشكل مفاجئ سنة ١٣٥٧م وأسر شقيقه الصغر خليل جعل أورخان يقبل صلحاً مع الإمبراطور البيزنطي، ثم استأنف مراد ابن أورخان سياسة التوسع في البلقان بعد إطلاق سراح أخيه خليل سنة ١٣٥٩م.

مراد الأول ١٣٦٠ – ١٣٨٩م

سار مراد الأول على نهج أبيه أورخان في سياسته الداخلية والخارجية وافتتح ولايته بضم مدينة أدرنه Adrianople عام ١٣٦٠م، وهي أهم مدن الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، فاتخذها عاصمة له في الجانب الأوربي وقاعدة لعملياته الحربية في البلقان، نظراً لقوة حصونها ومناعتها وقربها من مسرح العمليات، فكان لهذه النقلة أثرها الكبير في حياة الدولة العثمانية، فظلت أدرنه عاصمة للعثمانيين حتى فتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣م، وشهدت المدينة في عهد مراد تطوراً عمرانياً وثقافياً كبيراً، فانتقل إليها موظفو الإدارة والقضاء والعلماء والفقهاء، وأقيمت فيها المحاكم وشيدت المدارس والمساجد والمعاهد العسكرية لتدريب الإنكشارية. احتشد تحالف صليبي من ستين ألف جندي لمهاجمة العثمانيين فتصدى لهم القائد العثماني لالا شاهين بالقرب من (تشير من) على نهر مارتيز فهزمهم وفر قادة جيش التحالف من بينهم أميران صربيان لقيا حتفهما في نهر مارتيز . استأنف مراد ابن أورخان

سياسة التوسع في البلقان بعد إطلاق سراح أخيه خليل سنة ١٣٥٩م، فاستولى على القلاع الواقعة على وادي ماريتسا وكل القلاع الواقعة على الطريق بين أدرن عاصمة تراس والقسطنطينية، فقطع خط الإمدادات عن القسطنطينية، واستولى على أدرن عام ١٣٦١م . تجنب مراد القسطنطينية في غزواته لكنه، حاول تطويقها بفتوحاته من الشمال، ليعزلها عن باقي أوربا، لكنه واجه تحالفاً بلقانياً من البلغار والصرب فزحف مراد على ملك الصرب لازار Lazare والحق به هزيمة نكراء في يونيو من عام ١٣٨٩م، على أرض كوسوفو Kossovo وتعنى أرض الطيور السوداء وعلى الرغم من استشهاد مراد الأول نفسه في ميدان المعركة وهو يتفقد القتلى والجرحى، على يد جندي صربي ادعى أنه يريد أن يعلن إسلامه على يد السلطان فأمنه فطعنه الجندي بخنجر مسموم، على الرغم من ذلك قضت هذه المعركة على التحالف الصربي فلم يقم للصرب قائمة حتى القرن التاسع عشر .

تابع العثمانيون غزواتهم في البلقان في ثلاثة خطوط سار الخط الأول في اتجاه الغرب حتى وصلوا في عام ١٣٨٥ م إلى الساحل الألباني وقبل الحكام المحليون في مقدونيا وألبانيا السيادة العثمانية. بينما انطلق الخط الثاني من ميناء سالونيك إلى تسالي وتم في عام ١٣٨٧م، بينما امتد الخط الثالث من القسطنطينية إلى بلجراد، وتم استكمال هذا الخط في عهد بايزيد عام ١٣٩٥م بسقوط وادي ماريتسا في يد العثمانيين، ودخل العثمانيون وادي مورافا عن طريق صوفيا ونيش، وفي العام التالي غدت مملكة صربيا ولاية تابعة للعثمانيين .

خلف بايزيد والده مراد بعد استشهاده في ساحة القتال، وظهرت براعة بايزيد في سرعة الانتقال بين ميادين الحرب في الجانبين الأوربي والأسيوي لذا أطلق عليه لقب (يلدرم) وتعني الصاعقة. حاول البلقانيون توجيه ضربة للسلطان الجديد علها تكون القاضية، فاجتمعت القوات المتحالفة بدعوة من البابا يونيفاس التاسع من

١٢٠٠٠٠٠ مقاتل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا والمجر والصرب وتقدمت القوات المتحالفة إلى نيقوبوليس Nicopolis على نهر الدانوب ، والحقوا بالقوات العثمانية هزيمة في البداية، لكن دارت الدائرة عليهم وانتصر بايزيد الأول الذي ظهر فجأة في حومة الوغى، وتمكن من قهر أعدائه وأسر معظم قادتهم، ثم عفا عنهم مقابل الفدية، في معركة أطلق عليها المسلمون صليبية نيقوبوليس ١٣٩٦م ، فكانت هذه هي آخر معارك التحالف مع العثمانيين في عهد بايزيد، الذي هادن الصرب ليتفرغ للإمارات السلجوقية في آسيا الصغرى، ووافق على تعيين ابنا الملك لازار على عرش صربيا مناصفة وتزوج من شقيقتهما، على أن يدينان له بالولاء ويدفعان له الجزية ويمدانه بفرقة من الجنود في حالة الحرب. ثم وجه بايزيد ضربة خاطفة لبلغاريا فأخضعها لسلطانه الأمر الذي أثار الرعب في نفوس الأوروبيين، وذلك قبل أن ينتقل إلى آسيا الصغرى ويضم الإمارات الإسلامية السلجوقية لملكه، ولم ينس بايزيد أن يعاقب المتعاونين مع التحالف الصليبي في معركة نيقوبوليس، فعاقب شبه جزيرة المورة لتقديمها مساعدة لأعدائه، وعاقب إمبراطور القسطنطينية فضرب حصاراً حول المدينة، لكنه اضطر لفك الحصار عندما ظهرت بوادر خطر المغول من الشرق .

ويضم الإمارات إسلامية التي تمت على أنقاض الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى انحرفت الدولة العثمانية عن سياستها التي قامت عليها منذ نعومة أظافرها، ألا وهي الجهاد المقدس لنشر الإسلام ، حسب رأي أحد المؤرخين ومع وجاهة هذا الرأي إلا أننا نلفت الانتباه إلى أن وجود هذه الكيانات السياسية الصغيرة الضعيفة في آسيا الصغرى قد لا يخدم قضية انتشار الإسلام في الشق الأوربي الذي يحتاج إلى قوة أكبر وتضافر الجهود بشكل أعظم، لذا فإن ضمها إلى الدولة الأكبر يسخر إمكاناتها لخدمة القضية بشكل أفضل .

وخلال هذه المرحلة من الوجود العثماني في البلقان احترم العثمانيون نظام الإقطاعيات في المنطقة، فاقروا الأمراء المحليين مقابل اعترافهم بالسيادة العثمانية ودفع جزية سنوية، مع الاحتفاظ بأحد أبناء الأمير التابع في البلاط العثماني، على أن يقوم الأمير بزيارة سنوية للبلاط العثماني يؤكد خلالها ولاءه للسلطان وأن يتبنى سياسة الدولة فيعادي من تعاديه الدولة ويصادق من تصادق، ومن يخالف ذلك تعلن أرضه دار حرب مرة أخرى قبل أمراء البلقان الواحد تلو الآخر بالسيادة العثمانية، ولم تقم دولة كبرى في أوربا بمواجهة العثمانيين خلال هذه المرحلة على الرغم من دعوة البابا الحملة صليبية تواجه الخطر العثماني .

المحاضرة الثالثة

محنة الغزو المغولي عام ١٤٠٢م

وصلت الأنباء من الشرق برغبة تيمورلنك الخان مغول إيران في السيطرة على آسيا الصغرى وتوسيع ملكه على حساب الدولة العثمانية، على الرغم من اعتناق تيمورلنك الإسلام آنذاك، لكن يبدو أن الرغبة في التوسع أو إخضاع بايزيد لنفوذه كانت أقوى يزكيها رسل الغرب الأوربي التي حملت وشاية لتيمورلنك بعزم بايزيد على مهاجمة أملاكه، وإغراء تيمورلنك بغزو آسيا الصغرى، لتخليصهم من شبح التهديد العثماني لهم. أرسل تيمورلنك إلى بايزيد معترفاً بجهوده لخدمة الإسلام، لكنه يطالبه بالخضوع له باعتباره ملك الترك الأعظم، فرفض بايزيد وقبل النزال تقدم تيمورلنك إلى سيواس وأهلك حاميتها التي كان يقودها أرطغرل بن بايزيد وتقدمت قوات المغول نحو أنقرة، فاشتبكت مع بايزيد في معركة حامية انتهت بهزيمة بايزيد وأسره سنة ١٤٠٢م، وانتهت حياته بشكل غامض، فاعتقد البعض أنه انتحر ، وهو أمر صعب أن يقدم عليه حاكم مسلم بهذا الحجم .

ويرجع سبب الهزيمة إلى اندفاع بايزيد في القتال دون روية بعد وصوله من الجانب الأوربي متأخراً، بينما كان تيمورلنك قد أعد خطة محكمة للهجوم. أعاد تيمورلنك الوضع في آسيا الصغرى إلى ما كان عليه قبل السيطرة العثمانية وعاد إلى بلاده وما لبث أن توفي وتفككت دولته. وكتب الله للدولة العثمانية البقاء فقد حفظها وجود أبناء بايزيد في الجانب الأوربي، ولم يتمكن المغول من عبور البسفور والدردنيل لاستكمال مهمتهم لأنهم أمة برية لا خبرة لها بالبحار . أما الأوربيون الذين أطلقوا العنان لأنفسهم ابتهاجاً واحتفالاً بهزيمة بايزيد وموته، فكتب البابا وملوك فرنسا

وانجلترا وقشتالة لتيمورلنك يهنئونه بهذا الانتصار، اعتقاداً منهم أن شبح الخطر العثماني قد زال إلى الأبد، لكنهم لم تكتمل فرحتهم فما هي إلا سنوات قليلة وعاد العثمانيون من جديد.

وإذا كان القدر وحده قد حفظ آل عثمان من الهلاك وملكهم من الزوال لأمر قد قدر فإن الصراع بين أبناء بايزيد حول العرش استمر عقداً من الزمان (١٤٠٣ – ١٤١٣م) حتى تمكن محمد الأول (١٤١٣ – ١٤٢١) من . حسم الأمر وتولى العرش. ولم يسجل التاريخ لمحمد الأول سياسية توسعية نشطه، لكنه يكفيه أنه أعاد الأمور إلى نصابها، فأستعاد كثير من ملك آبائه وأجداده المسلوب وقمع الثورات وأعاد الأمن والهدوء إلى البلاد، وأعاد تنظيم الإمارة فهيا الأمر لخلفائه من بعده ليتابعوا سياسة التوسع من جديد، واتخذ من غاليبولي عاصمة غربية وحلت أدرنه محل بورصة عاصمة شرقية ورئيسية للدولة.

وكان السلطان محمد الأول محباً للأدب والفنون وحب الخير، فكان يرسل بصرة إلى أمير مكة لتوزيعها على فقرائها بشكل سنوي، حتى غدت سنة لخلفائه من بعده، وعلى الرغم من موته المبكر عن عمر لم يتجاوز الثانية والأربعين إلا أنه وطد أركان دولته وقضى على الفتن.

ومما لاشك فيه أن الخلاف حول العرش سنة غير صحية جديدة على الدولة العثمانية، لكنها استمرت وسيكون لها عواقب وخيمة في مستقبل الدولة. ويبدو أن وفاة بايزيد فجأة بسبب الغزو المغولي جعله يترك العرش بدون إعداد لمن سيخلفه من أبنائه، فكان الخلاف الذي استمر عقداً كاملاً من الزمان.

قلبت معركة أنقرة عام ١٤٠٢ موازين القوى في البلقان لصالح البيزنطيين الذين استغلوا الصراع على العرش العثماني، فأرغم الإمبراطور البيزنطي يوحنا السابع الأمير سليمان بن بايزيد على توقيع معاهدة مذلة سنة ١٤٠٣م، مكنت الإمبراطور من العودة إلى القسطنطينية وأعادت له كثير من المدن حول العاصمة، وباستقرار الأمور في الدولة العثمانية شهدت العلاقات العثمانية البيزنطية هدوءً نسبياً طوال عهد محمد الأول، وزعم أحد الباحثين أن أواصر الصداقة توطدت بين السلطان العثماني والإمبراطور البيزنطي لدرجة أن السلطان محمد أوصى وهو على فراش الموت بوضع اثنين من أولاده الصغار تحت وصاية الإمبراطور ، ولما تولى السلطان مراد الثاني العرش (١٤٢١ _١٤٥١) طلب منه الإمبراطور تنفيذ وصية والده بإرسال اثنين من إخوته إلى القسطنطينية لكن السلطان مراد رفض تنفيذ الوصية، فأطلق الإمبراطور أحد مدعي العرش وزوده بالسلاح والمال والرجال، غير أن مراد تمكن من القضاء عليه، وبقي الخلاف بينه وبين الإمبراطور مانويل، وحاصر القسطنطينية حتى غدت قاب قوسين أو أدنى من قبضته، غير أن الإمبراطور أشعل الثورة في آسيا الصغرى لتشتيت قوة السلطان العثماني .

توجه السلطان مراد الثاني إلى آسيا الصغرى فخاض حروباً كبرى تمكن من حسمها لصالحه وضم إماراتها فيما عدا إمارة قرة مان، ثم عاد إلى البلقان وأرغم الإمبراطور في عام ١٤٢٤م على توقيع معاهدة جديدة تنازل بمقتضاها عن المكاسب التي حصل عليها عقب معركة أنقره عام ١٤٠٢م ، واستولى على سالونيك في مارس ١٤٣٠م .

وجهت الجيوش العثمانية ضربات موجعة ضد حركات التمرد في شتى أنحاء البلقان فأخضعت ملك الصرب لازار ميتش الذي جدد ولاءه للسلطان مراد، واتجه جيش عثماني نحو اليونان لتوطيد دعائم الحكم هناك، حاول العثمانيون فتح ألبانيا ونجح جيش عثماني في عام ١٤٣١م من فتح جنوب ألبانيا، غير أن الألبان الشماليون بمساعدة قوى أوربية أخرى لاسيما البنادقة تمكنوا من القضاء على حملتين عثمانيتين متتاليتين، وكبدوا العثمانيين خسائر فادحة في الأرواح عند الانسحاب. ثم اتجه السلطان مراد إلى المجر فالحق بها هزيمة نكراء في عام ١٤٣٨م واستولى على الأفلاق ثم هاجم بلجراد لكنه فشل في دخولها ، وواجه مراد حلفاً صليبياً كبيراً دعا إليه البابا ، تمكن هذا الحلف من إلحاق الهزيمة بالجيوش العثمانية وأسر محمود شلبي قائد الجيوش وزوج ابنة السلطان الذي اضطر لقبول صلح في ١٤٤٤م لمدة عشر سنوات ، أعاد بمقتضاه الأفلاق للمجر واعترف باستقلال الصرب وافتدى زوج ابنته بمبلغ ستين ألف دوقية .

أنهى مراد الثاني حياته السياسية بنفسه في عام ١٤٤٧م بعد أن أثر حياة الزهد والعزلة إثر فجيعته في موت ابنه الأكبر الأمير علاء فجأة، فتنازل عن العرش لابنه محمد وهو ابن أربعة عشر عاماً، ثم ذهب إلى مغنيسيا بآسيا الصغرى ليقضي بقية عمره في عزلة وخلوة تفرغ خلالها للعبادة والتأمل وما أن وصل الخبر إلى أوربا حتى قرر البابا نقض المعاهدة مع الدولة العثمانية على اعتبار أنه لم يباركها وهو ممثل المسيح في الأرض، فتجمعت جيوش أوربا وقررت مهاجمة أملاك الدولة العثمانية في البلقان، فخرج مراد الثاني من خلوته وتوجه على رأس أربعمائة ألف مقاتل إلى البلقان، فالتقى جيش التحالف في سهول قوصوة بالقرب من أدرنه في منتصف أكتوبر ١٤٤٨م في معركة دامت ثلاثة أيام، تمكن خلالها السلطان مراد

من هزيمة جيش التحالف وقتل ملك المجر وقطعت رأسه ورفعها الجنود على من رمح واكتفى السلطان مراد بهذا الانتصار، وعاد إلى خلوته في مغنيسيا مرة أخرى، لكن سرعان ما ثار الإنكشارية وسببوا فوضى كبرى في البلقان، فقرر السلطان العودة للحكم للمرة الثالثة وبقي في الحكم هذه المرة لنهاية حياته .

وهكذا نشأت الدولة العثمانية كإمارة من إمارات الحدود الحاجزة بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية، واستفادت من ضعف الطرفين وتوسعت في البداية على حساب الجانب البيزنطي ثم على حساب الإمارات الإسلامية في آسيا الصغرى، وفي نهاية هذه المرحلة تعرضت لغزو مغولي كاد يقضي عليها في مهدها، لولا العناية الإلهية التي أنقذت أبناء السلطان بايزيد لوجودهم في الجانب الأوربي إبان الغزو المغولي للدولة العثمانية .

المحاضرة الرابعة

محمد الثاني (الفاتح) ١٤٥١ – ١٤٨١م

اعتلى محمد الثاني المعروف بمحمد الفاتح العرش بشكل نهائي بعد وفاة والده السلطان مراد الثاني في عام ١٤٥١م ، ووضع نصب عينيه وصية والده بإتمام ما بدأه أجداده في أوربا بفتح العاصمة البيزنطية وتحقيق الحلم الذي راود المسلمين منذ فترة طويلة، فعقد اتفاقيات سلام مع الدول الأوربية المجاورة والإمارات الواقعة على حدود الدولة العثمانية في آسيا الصغرى. بدأ محمد الثاني بعد العدة للفتح الأكبر والأشهر في تاريخ الدولة العثمانية بتؤدة؛ فبنى قلعة عملاقة على مضيق البسفور بالقرب من أسوار القسطنطينية عرفت بقلعة الروميللي بلغ ارتفاعها اثنين وثمانين متراً مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد في الجانب الأسيوي، لتشرفان على أضيق منطقة في البسفور ، ولتتحكمان معاً في عبور السفن من هذا المضيق لمنع الإمدادات البحرية عن القسطنطينية، كما استعان محمد الفاتح بخبير مجري يدعى أوربان في بناء مدفع عملاق أطلق عليه المدفع السلطاني، إضافة إلى عدد من المدافع الحديثة الضخمة. كانت هذه المدافع ثقيلة تحتاج على مئات الثيران لجرها، كما عمل على تزويد الأسطول العثماني بعدد من السفن الحديثة، تحسباً للمواجهات البحرية، وفشلت جهود الإمبراطور البيزنطي في وقف بناء القلعة .

أيقن الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٨ – ١٤٥٣م) أن عاصمته هي المستهدف من وراء استعدادات محمد الثاني، فبذل قصارى جهده في تحصينها. وقد بنيت القسطنطينية على مثلث أرضي محاط بالمياه من جانبين، في موقع

حصين مرتفع يشرف على مضيق البسفور والقرن الذهبي وأحيطت بسور من جميع الجهات مزود بأبراج للحراسة والمراقبة. (١) قام الإمبراطور بترميم أسوارها، كما أحاط الأسوار المشرفة على الجانب البري من أرض البلقان بخندق يمنع المهاجمين من الوصول إلى السور، وأقام المتاريس، وجمع الأطعمة اللازمة لمدة طويلة في حالة الحصار، وجمع الأسلحة اللازمة للدفاع عن المدينة، كما أرسل إلى البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ – ١٤٥٥م) يطلب منه المساعدة، فجاء الرد البابوي بضرورة توحيد الكنيستين (الكاثوليكية والأرثوذكسية) فاستجاب الإمبراطور وعقد الاجتماع في كنيسة أيا صوفيا، حيث تم توحيد الكنيستين، ولكن يقي هذا التوحيد أجوفاً فلم يلق تأييداً شعبياً لدى الطرفين .

وقد عبر قائد الأسطول البيزنطي عن سخط البيزنطيين على توحيد الكنيستين بقوله: "إنني أفضل أن أرى عمائم الأتراك حاكمة للقسطنطينية من أن أرى قلنسوة اللاتين هاهنا ووجه الإمبراطور سفراءه إلى الدول الأوربية طالباً منها المساعدة، غير أن الوضع الأوربي لم يسمح إلا بالقليل من المساعدات جاءت من جنوة والبندقية .

تقوقعت القسطنطينية على نفسها، وغدا من الصعب التكهن بإمكانية فتحها، فالمدينة تشرف على ممر مائي بشواطئ صخرية شديدة الانحدار يصعب تسلقها، علاوة على الأسوار والنيران الإغريقية التي تقذف بها الحامية من الأبراج على السفن المغيرة، كما أن السلسلة الحديدة تمنع السفن والقوارب من دخول القرن الذهبي الذي تشرف عليه أسوار المدينة وميناؤها الوحيد، وهذه هي الجهة الأضعف في السور، أما الدفاعات البرية فأسوارها وأبراجها منيعة إضافة إلى الخندق الذي أمر بحفره الإمبراطور حول هذا السور مما يصعب من مهمة المغيرين .

بدأت بوادر الحصار بتوجه الأسطول العثماني من غاليبولي إلى القسطنطينية في نهاية مارس ١٤٥٣م ، وتحرك المدفع العثماني العملاق تجاه المدينة في الثاني من نيسان، وتجمعت القوات البرية أمام أسوار القسطنطينية في ٦ نيسان. وقبل أن تبدأ العمليات العسكرية أرسل السلطان محمد الثاني رسولاً يحمل رسالة إلى الإمبراطور القابع في القسطنطينية جاء فيها لقد اكتملت تجهيزات الهجوم الشامل وجاء الوقت الذي يجب أن نحدد ماذا نحن فاعلين ماذا ترى الآن؟ هل ترغب في تسليم المدينة والرحيل في سلام إلى أي مكان تحدده برفقة حاشيتك وأهل بيتك وممتلكاتهم، تاركاً خلفك سكان المدينة مع وعد بألا نتعرض لهم بسوء ؟ أم أنك سوف تختار المقاومة وما سيترتب على ذلك من فقدان لحياتك وممتلكاتك، وتفضل أن ترى الأتراك وهم يقومون بسبي شعبك، وتشتيتهم عبر أرجاء الأرض؟" وجاء الرد الإمبراطوري يعرض ضريبة سنوية كبيرة يدفعها للسلطان العثماني مقابل العيش في سلام كما كان الوضع أيام الآباء، لكنه يرفض تماماً فكرة تسليم المدينة مؤثراً الموت على التسليم دفاعاً عن المدينة، وشكك في إمكانية تحقيق العثمانيين النصر على المدينة الحصينة .

أيقن السلطان العثماني أن لا مفر من المواجهة العسكرية، كما عجزت البحرية العثمانية عن تحقيق النصر على الأسطول البيزنطي في البسفور حتى ٢٢ نيسان ، وحالت السلسلة العملاقة دون دخول الأسطول العثماني القرن الذهبي . ومع عجز البحرية العثمانية عن صد السفن البيزنطية ومنعها من دخول البسفور عزل السلطان محمد الثاني قائد البحرية العثمانية بالطة أوغلي وعين مكانه حمزة باشا، وحاول الوزير خليل باشا أن يقنع السلطان بالعدول عن فتح القسطنطينية والاكتفاء

من الغنيمة بمصالحة أهلها على الجزية، لكن السلطان أصر على استمرار الحصار حتى الفتح .

لم يكن اليأس يعرف إلى قلب محمد الثاني طريقاً، فرسم مع أركان حربه خطة لنقل قطع من الأسطول من ميناء بكطاش إلى داخل القرن الذهبي مباشرة لمسافة ثلاثة أميال براً، تجرها الخيول تارة والقوات البرية تارة أخرى فوق كتل خشبية مدهونة بالشحم والزيت، فتمكن العثمانيون من نقل ثمانين سفينة في ليلة واحدة، فلما كان الصباح فوجئ أهالي المدينة والمدافعين عنها بالقوات العثمانية في الميناء. (١) وأمر السلطان ببراميل حديدية تجمع إلى بعضها وتمسك بشناكل لتشكل جسراً توضع عليه مشاية خشبية لعبور الجنود، وبذلك نجح في إدخال الجنود العثمانيين إلى الجزء الأضعف من السور واكتمل حصار المدينة براً وبحراً .

استمرت العمليات العسكرية طوال الفترة من ٢٩ نيسان حتى أيار مايو ١٤٥٣م في شكل هجمات عثمانية ودفاع بيزنطي استبسالي وبطولي، ومع طول الحصار عرض الإمبراطور السلام والاحتفاظ بالقسطنطينية مقابل جزية كبيرة يدفعها للسلطان العثماني الذي أصر على تسليم المدينة. فلما أيقن الإمبراطور قسطنطين أن لا مناص من الحرب ذهب إلى كنيسة آيا صوفيا استعداداً للقتال حتى الموت، ووصلت إمدادات من إيطاليا تمكن خمسين جندياً منهم من دخول المدينة رغم الحصار. وحاول العثمانيون دخول المدينة بشتى الطرق منها فكرة حفر أنفاق أسفل أسوار المدينة، لكن هذه الطريقة لم تعط الثمار المرجوة، فانتهى بعضها بسقوطها فوق رأس الجنود، وانتهى البعض بالوقوع في أسر البيزنطيين فقتلوهم والقوا بهم إلى معسكر العلمانيين وانتهى الآخر بالاختناق إلى مقابلة البيزنطيين لهم بالنيران .

لم ييأس العثمانيون من الحصار وابتدعوا طرقاً جديدة منها محاولة اقتحام الأسوار بالقلاع المتحركة المكسوة بالجلود المبللة بالماء حتى لا تتعلق بها النيران الإغريقية، والقلعة مؤلفة من ثلاثة أدوار، في كل دور منها مجموعة من الرماة، أخذت القوات العثمانية تقترب بالقلعة الخشبية رويداً رويداً، الأمر الذي أصاب القوات البيزنطية المدافعة عن المدينة بالذعر. ومن القلعة تمكنت القوات العثمانية من اصطياد كل من ظهر من القوات المدافعة عن المدينة من أعلى الصور الترب العثمانيون بالقلعة حتى التصقت بالصور لكن المدافعون تمكنوا من تكثيف الديران حتى احترقت القلعة .

قاد السلطان محمد الثاني المعركة بنفسه من فوق صهوة جواده ، فكان يواصل الليل بالنهار يحفز جدوده على القتال بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى ، فأحيط المهاجمون بأسوار المدينة إحاطة السوار بالمعصم بأعداد هائلة تزيد على المائتي ألف، بينما تركزت دفاعات البيزنطيين من داخل السور بقيادة الإمبراطور وقائد قواته جستنياني في المناطق المهدمة من السور والبوابة الرئيسية للمدينة، وعززوا دفاعاتهم بالخنادق ورماة الأقواس والنيران والحجارة على القلاع البارزة من السور. حاول الأتراك تسلق الأسوار برمي السلالم عليها محتمين بدروعهم ، لكن تم إحباط العملية بسيل من الحجارة القيت عليهم من فوق السور ، لكن العثمانيون لم يأسوا، فتمكن خمسين جندياً من تسلق السور وقتلوا من فوقه من البيزنطيين ونصبوا السلالم في منطقة نائية عن نقاط تركز القوات المدافعة عن المدينة تسلل عدد كبير من الأتراك إلى داخل المدينة فقتلوا كل من واجههم، حتى أنهم لم يتمكنوا مكن فتح البوابة

الرئيسية لكثرة الجثث أمامها، فتسلل المقاتلون العثمانيون من الفتحات الموجودة في الأسوار وتحول جزء من المعارك داخل المدينة .

حدد محمد الثاني يوم ٢٩ أيار لهجوم شامل على المدينة . نجح البيزنطيون في رد هجمات العثمانيين الأولى ، غير أن مقتل القائد البيزنطي جستنياني فت في عضد قواته، فتفوق العثمانيون ومع نجاح قوات الانكشارية في فتح ثغرات عدة في السور بمساعدة المدفعية الثقيلة، أظهر الإمبراطور بسالة نادرة في الدفاع عن المدينة، وحاول أن يفتديها بالمال للمرة الثانية لكن السلطان العثماني أصر على تسليم المدينة مقابل تأمين أهلها وكنائسها، ولما تيقن الإمبراطور من سقوط المدينة اندفع في وسط الانكشارية فقتلوه وبسقوط الإمبراطور في ساحة القتال عمت الفوضى أرجاء المدينة واستسلمت للقوات العثمانية .

شهدت المدينة عقب الفتح عمليات سلب ونهب كعادة العمليات العسكرية ضد المدن ، لكن عندما دخل السلطان العثماني محمد الفاتح القسطنطينية أمر بوقف عمليات السلب والنهب وقرر أن يتخذ من القسطنطينية عاصمة له ولأولاده من بعده.

اتجه محمد الفاتح إلى كنيسة أيا صوفيا فأمن من فيها من رجال الدين والرهبان، فخرجوا إلى بيوتهم في أمان وأمر بتحويل الكنيسة إلى مسجد، لأن المدينة فتحت عنوة، وصلى بها الظهر. أخضع الفاتح نصارى المدينة للجزية، وأعطاهم في الوقت نفسه حرية إقامة شعائرهم الدينية واختيار رؤسائهم للفصل بينهم في المسائل المدنية، وهو حق أعطته الدولة العثمانية للمسيحيين في كل أقاليمها . وأطلق على القسطنطينية اسم استامبول وتكتب أحياناً استانبول أو إسلامبول أي ديار الإسلام أو عاصمة الإسلام وهو اسم أطلقه المسلمون الأوائل على هذه المدينة. ومما لاشك فيه أن هذا الفتح رفع اسم العثمانيين عالياً في العالم الإسلامي فقد حققوا حلماً طالما راود

المسلمين، فأرسل محمد الثاني الملقب بالفاتح رسائله إلى حكام العالم الإسلامي يزف إليهم نبأ فتحه العظيم .

حاول محمد الفاتح أن يعتزل الحياة السياسية بعد فتح القسطنطينية ويدخل خلوة للعبادة متأثراً بشيخه ومرشده الشيخ "آق شمس الدين" الذي حفزه على فتح القسطنطينية وسانده في مهمته بالتوجيه المعنوي للجنود طوال الإعداد للفتح وفترة الحصار، لكن الشيخ رفض طلب محمد الفاتح في الالتحاق به في خلوته خوفاً على السلطنة من أن تحرم من مثل هذه القيادة إن أحس الفاتح بلذة الخلوة، فنصحه بالعودة وعدم الغرور وتحري العدل بين الرعية ففيهما خير السلطان والعباد والبلاد .

وباستيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية أصبحت الإمارة العثمانية تستحق لقب إمبراطورية، وغدا البحر الأسود بحيرة عثمانية، فتحكمت في مدخله ومخرجه. ومما لاشك فيه أن فتح القسطنطينية يعد أعظم أعمال محمد الثاني الحربية واستحق عليه لقب الفاتح، لكنه لم يكن آخرها ، فقد جرد جيشاً من مائة وخمسين ألفاً على بلجراد لكنه فقد كثيراً من جنوده ومدافعه دون أن يحقق مكاسب تذكر، فعاد إلى القسطنطينية، وفي عام ١٤٦١م استولى محمد الفاتح على مملكة ترابيزون ، وهي مملكة يونانية مسيحية في شمال الأناضول، ثم استولى على أثينا عاصمة بلاد اليونان . وكانت مملكة ترابيزون قد تحالفت ضده مع الأمير أوزون حسن التركماني ، زعيم إمارة آق قوينلو (القطيع البيض) التي تكونت في شرق آسيا الصغرى عقب انهيار إمبراطورية تيمورلنك ، لكن أوزون حسن تخلى عن حلفائه عندما هاجمهم محمد الثاني، ثم تمكن الفاتح من ضم إمارة قره مان في آسيا الصغرى إلى أملاك الدولة العثمانية ، وكانت قد شقت عصا الطاعة إبان محنة ١٤٠٢م .

كانت الجيوش العثمانية في آخر أيام الفاتح قد وصلت إلى إيطاليا. ودان شرق أوربا كله للعثمانيين، وفي ١٤ ربيع الأول ١٨٩هـ (٣ مايو (١٤٨١م) توفي الفاتح في اسكيدار بآسيا الصغرى وسط جيش جرار لا يعرف أحد مقصده، وكانت هذه هي عادة محمد الفاتح، ورجحت الروايات أن جزيرة رودس كانت في المقصد، لذا أقيمت بها الأفراح ابتهاجاً بموت الفاتح، وبمجرد وصول خبر الوفاة انسحبت الجيوش العثمانية من إيطاليا. وابتهجت أوربا فرحاً بهذا الخبر لاسيما البابا الذي أمر بفتح الكنائس وإقامة الصلوات ابتهاجاً بالتخلص من أكبر خط تهدد أوربا أنذاك ، وجابت المواكب الشوارع وأقيمت المهرجانات وسط طلقات المدافع في روما ثلاثة أيام .

المحاضرة الخامسة

بايزيد الثاني ١٤٨١ – ١٥١٢م

عقب وفاة محمد الفاتح حدث نزاع على العرش بين ابنيه بايزيد وجم نجح الأول في الوصول إلى استانبول وأعلن نفسه سلطاناً، فيما بقي الثاني في بروصه وأعلن نفسه سلطاناً أيضاً، وهنا ظهرت فكرة تقسيم الإمبراطورية بينهما، شق أوربي يحكمه بايزيد وشق أسيوي يحكمه جم، لكن فكرة التقسيم لم ترق بايزيد فأرسل جيوشه تطارد جم حتى خرج إلى مصر، حاول قايتباي مناصرة جم لكنه لقي هزيمة على يد قوات بايزيد، ففر جم إلى رودس حيث تلقفته فرسان القديس يوحنا، واتخذوا منه ورقة للضغط على بايزيد، ونقلوا جم إلى أوربا الغربية، فبقي بها حتى وافته المنية في عام ١٤٩٥م ، وخلال الفترة التي بقي فيها جم في أوربا الغربية توقفت أعمال بايزيد التوسعية في أوربا حتى لا يستثير الدول الأوربية ضده .

أدت مساندة قايتباي لجم إلى إثارة بايزيد الثاني فأرسل قواته تهاجم أطراف دولة المماليك، فاستولت على قيليقيه في عام ١٤٨٧م ، غير أن المماليك تمكنوا من استردادها عام ١٤٩٠م وأرغموا علاء الدولة على التنازل عن عرش إمارة ذو القادر، وانشغلت الإمبراطورية العثمانية بمشاكل جم في الغرب. وتمت تسوية المشاكل بين المماليك والعثمانيين في صلح عام ١٤٩١م ، حيث عادت مناطق النفوذ إلى ما كانت عليه من قبل، وأطلق الطرفان سراح ما بقي لديهما من أسرى، وظلت إمارة ذو القادر شبه مستقلة في ظل النفوذ المملوكي ، وظل هذا الصلح ساري المفعول حتى

عام ١٥١٢م عندما أجبر السلطان سليم الأول أباه بايزيد الثاني على التنازل له عن العرش .

انشغل بايزيد بالدفاع عن ممتلكاته في الجانبين الأوربي والأسيوي، ففي الجانب الأوربي واجه بايزيد تحالفاً من البابا وملوك البندقية والنمسا وفرنسا حاول هذا التحالف أن يشل حركة التوسعات العثمانية ، وفي الجانب الأسيوي أخذت إمارة موسكو تتوسع على حساب الدولة العثمانية ، وعقد بايزيد اتفاقاً مع السلطان المملوكي لنصرة المسلمين في الأندلس ضد تجاوزات الممالك المسيحية هناك، فأرسل أسطولاً عام ١٤٩٩م حقق بعض الانتصارات ، لكنه لم يكن بالقوة الكافية ليترك أثراً واضحاً على الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبيريا ، ومما لاشك فيه أن الصراع مع جم على العرش كانت له آثار سلبية على قوة بايزيد في مواجهة أعداء الدولة العثمانية، كما اجتمعت إلى هذه الأخطار الداخلية والخارجية كوارث طبيعية تمثلت في عدد من الزلازل ضربت الأستانة فهدمت ما يربو على الألف بيت من بيوت المدينة وعدد كبير من المساجد والقصور، وتهدم جانب كبير من القلاع والصور المحيط بالمدينة، كما زاد المد البحري في القرن الذهبي حتى هدد المدينة ذاتها، وقد أمر السلطان بايزيد الثاني خمسة عشر ألفا من عماله بإصلاح ما تهدم ، الأمر الذي كلف خزانة الدولة مبالغ طائلة .

كان بايزيد الثاني تحث الخلق متواضعاً أدبياً عالماً شاعراً محباً للفلك والطبيعة، لم يتخلف عن الغزو طوال حياته، كان ميالاً إلى السلم لذا اللف جيشه حول ابنه سليم الذي كان يرى فيه أملاً كبيراً في التوسع وإعادة حركة الفتوحات العثمانية إلى سابق عهدها، وبايعه في نيسان ١٥١٢م وأرغم بايزيد عن التنازل له عن الحكم ، فتنازل طائعاً عن العرش لابنه .

سليم الأول ١٥١٢ – ١٥١٩م

وصل سليم إلى العرش وهو شاب صغير السن، فأظهر قسوة للحفاظ على هيئة المنصب، لاسيما ضد الطامعين في العرش من آل بيت السلطنة . كان سليم يميل إلى مرافقة العلماء والشعراء والمؤرخين حتى في ميادين القتال ربما لتسجيل أحداث المعارك.

كان الخطر الصفوي من أول الأخطار التي واجهت السلطان سليم الأول ، حيث بدا المذهب الصفوي يتسلل إلى المناطق الشرقية من أملاك الدولة العثمانية بأمر من الشاه إسماعيل الصفوي، الذي أعلن المذهب الشيعي مذهباً رسمياً لدولته ، لذا وضع السلطان سليم التصدي للخطر الشيعي في جدول أولوياته ، ونجح بالفعل في إلحاق أول هزيمة بالشاه الصفوي في معركة جالديران ١٥١٤م ودخل على إثرها تبريز عاصمة الصفويين، لكنه انسحب فجأة ولم يتتبع فلول القوات الصفوية، واكتفى من الغنيمة بتطهير المناطق الشرقية من الشيعة، وكانت هزيمة جالديران كافية الإبعاد الخطر الصفوي عن أملاك دولته.

وعلى غير المتوقع تحول السلطان سليم الأول بالنشاط الحربي للدولة العثمانية من الميدان الأوربي إلى المشرق العربي، حيث أملاك دولة المماليك، فاستولى على الشام عقب انتصاره على السلطان قنصوه الغوري في مرج دابق ١٥١٦م ، ثم استولى على مصر بعد انتصاره على المماليك الجراكسة في الريدانية ١٥١٧م وقتل طومان باي ، ولم يحدث العثمانيون تغييرات إدارية كبرى في مصر والشام حيث أسندت الإدارة إلى الكوادر الإدارية المملوكية التي أعلنت ولاءها للسلطان العثماني. وسرعان ما أعلن شريف مكة المكرمة ولاءه للسلطان العثماني

وسلمه مفاتيح الكعبة ليصبح خادماً للحرمين الشريفين وتنضوي الحجاز تحت السيادة العثمانية ، ولم يمض زمن طويل حتى وصل النفوذ العثماني إلى اليمن ليفرض سيطرته على البحر الأحمر ويتصدى للخطر البرتغالي.

سليمان القانوني ١٥٢٠ – ١٥٦٦م

نشأ سليمان محباً للعلم والأدب ، تولى حكم السلطنة بعد وفاة والده وعمره آنذاك ٢٦ عاماً، عرف بين أقرانه منذ الصغر بالجد والصرامة وحب العلم والتريث تعد فترة حكمه الطويلة (٣٦عاماً) العصر الذهبي للدولة العثمانية إذ بلغت أوج توسعاته شرقاً وغرباً ، وتمكن من تأديب الخارجين وتأمين حدود الدولة وعاد النشاط مجدداً للميدان الأوربي ؛ ففي بداية حكمه زادت عمليات القرصنة التي كان يمارسها فرسان القديس يوحنا في شرقي البحر المتوسط ضد السفن العثمانية التجارية وتلك التي تحمل الحجاج العثمانيين، وبالتحديد من جزيرة رودس، لذا قرر السلطان سليمان فتح الجزيرة ، فاستغل انشغال أوربا بالحرب بين الإمبراطور الروماني وملك فرنسا، وكذلك الهدنة مع البندقية وأمر البحرية العثمانية بفتح الجزيرة عام ١٥٢٢م فتمكن من فتحها ، وطرد منها فرسان القديس يوحنا، فتوجهوا إلى مالطة .

وعندما تنكر ملك المجر لتعهدات أسلافه ورفض دفع الجزية السنوية المقررة، قرر السلطان سليمان غزو بلاده، وكان الملك فيلاديسلاف الثاني ملك المجر قد قتل مبعوث الدولة العثمانية إليه لتحصيل الجزية، خاضت القوات العثمانية سلسلة من المعارك طويلة الأمد ضد المجر استمرت طوال الفترة من ١٥٢١ – ١٥٢٩م، حققت القوات العثمانية عدة انتصارات أهمها معركة موهاكس سنة ١٥٢٦ ووصلت إلى أسوار فيينا ، لكن طول فترة القتال وانتهاء الحرب بين الإمبراطور الروماني وملك فرنسا أدى إلى تكتل الجبهة الأوربية ضد النشاط الحربي العثماني في المجر ،

فاضطرت القوات العثمانية إلى فك الحصار، ولكن استمر العداء بين السلطان سليمان والمجر طوال فترة حكمه .

واجه السلطان سليمان خلال فترة حكمه عددا من حركات التمرد والانفصال، كان أولها في بلاد الشام بزعامة جان بردي الغزالي الذي حاول أن يستقل بحلب، فتمكنت القوات العثمانية من قمع التمرد وقتل جان بردي وأرسلت برأسه إلى استانبول. وشهدت مصر المحاولة الثانية بقيادة أحمد باشا (الخائن) والي مصر الذي كان يطمع في الصدارة العظمى، فلما اكتفت الإدارة العثمانية بتوليه منصب والي مصر، حاول أحمد باشا أن يستقل بها سنة ١٥٣٤م ، فتصدت له قوات الانكشارية فلقي مصير الغزالي والتمرد الثالث شيعي قام به شخص يدعى بابا ذو النون في منطقة يوزغاد بعد أن جمع حوله أربعة آلاف من أتباعه، وأعلن العصيان سنة ١٥٦٢م واستطاع أن يلحق الهزيمة ببعض القوات العثمانية ، لكن تمكنت القوات العثمانية في نهاية الأمر من هزيمته وقتله وإرسال رأسه إلى العاصمة . وجاء التمرد الرابع شيعي أيضاً على غرار التمرد الثالث في منطقتي قونيه ومرعش ، قاده قلندر جلبي الذي جمع حوله ثلاثين ألف مقاتل ، وتغلب على القوات العثمانية، ولم تستطع الدولة مواجهته إلا بعد أن استمالت بعض أتباعه ثم ألحقت به الهزيمة وقتل.

أما علاقات السلطان سليمان القانوني الخارجية فكانت في أفضل صورها مع ملك فرنسا ، إذ جمع بينهما العداء للإمبراطور الروماني ، وقد توجت هذه العلاقة بمعاهدة الامتيازات ١٥٣٥م ، والتي نصت على حرية النقل والملاحة بين البلدين بما فيها السفن العسكرية ، حق رعايا فرنسا في ممارسة التجارة في البلدان التابعة للدولة العثمانية، معاملة رعايا فرنسا من حيث الرسوم الجمركية في الأراضي العثمانية بمثل ما يحاسب به رعايا الدولة العثمانية ، مع دفع الرسوم الجمركية مرة واحدة فقط ونص

الاتفاق على حق التمثيل القنصلي وتمتع القنصل والعاملين معه وأسرته بالحصانة الدبلوماسية، والقنصل الفرنسي حق النظر في القضايا المدنية والجنائية التي يكون رعاياه أطرافها ، وتساعده السلطات المحلية في تنفيذ هذه الأحكام ، وفي القضايا التي تجمع بين رعايا الدولة العثمانية ورعايا فرنسيين ، يكون من حق الرعايا الفرنسيين التحاكم في حضور مترجم من القنصلية، وللرعايا الفرنسيين حرية ممارسة العبادة في أرض الدولة العثمانية .

والمعاهدة مكسب اقتصادي وسياسي كبير لفرنسا في أراضي الدولة العثمانية ، تطورت لتصبح فرنسا راعية المصالح رعايا الدول الأوربية في الأراضي العثمانية ، ومع ضعف الدولة العثمانية أصبحت هذه الامتيازات مدخلاً لتثبيت أقدام فرنسا في بلاد الشام، وفي المقابل لا نجد لهذه الامتيازات أي جدوى للمصالح العثمانية في الأراضي الفرنسية .

وهكذا بدأ عصر القوة والازدهار بوصول محمد الفاتح إلى سدة الحكم وتوج بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م ، واستمر في عهد بايزيد الثاني لتصل الدولة إلى أوج توسعها في الجانب الأوربي. وتعد فترة حكم سليم الأول وسليمان القانوني امتداد لفترة القوة والازدهار في تاريخ الدولة العثمانية ، لكن انتقل ميدان التوسع العثماني من أوربا إلى المشرق الإسلامي (العربي) ليشكل فصلاً مستقلاً بذاته، وخلال هذه الفترة وصلت الدولة إلى أوج توسعاتها ونجح سلاطينها في الحفاظ على هيبة الدولة والتصدي لتسلل عوامل الضعف إلى كيان الدولة .

المحاضرة السادسة

الدولة العثمانية والمشرق الإسلامي

اتجهت الدولة العثمانية نحو المشرق الإسلامي وتوقفت توسعاتها أو كانت في الغرب الأوربي في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢ – ١٥١٩م) الذي وصل إلى سدة الحكم بمساعدة الجيش، بعد إرغام أبيه بايزيد الثاني على التنازل له عن العرش، واتبع سليم الأول سياسة قاسية في تصفية أعدائه ومنافسيه في العرش من إخوته ويرجع اتجاه الدولة العثمانية نحو المشرق إلى عدة عوامل أهمها :

أولاً/ تزايد الخطر الشيعي ممثلاً في الدولة الصفوية في بلاد فارس وتهديدها للمناطق السنية في شرقي الدولة العثمانية والعراق ، بمحاولتها بسط المذهب الشيعي في تلك المناطق .

ثانياً/ تزايد الخطر الصليبي ممثلاً في البرتغاليين في الخليج العربي والبحر الأحمر، وتهديده لمقدسات المسلمين في مكة والمدينة، ومحاولة السيطرة على بيت المقدس مرة أخرى من الجنوب ، وقد فكرت الدولة العثمانية في مواجهة هذا الخطر بعد فشل المماليك في التصدي له ، وهزيمتهم في ديو البحرية على يد البرتغاليين سنة ١٩٠٩م ، فرأت الدولة العثمانية من واجبها التصدي لهذا الخطر بوصفها قوة إسلامية كبرى .

ثالثاً/ وصول التوسعات العثمانية في الغرب الأوربي إلى أقصاها ، ولم بعد المجال يسمح بمزيد من التوسع في هذا الميدان ، فكان على السلطان سليم أن يبحث عن جبهة جديدة للتوسع يشبع بها رغبة الجيش الذي كره من أبيه بايزيد الثاني السلام والهدوء وساند سليم عله يتبع سياسة توسعية أكثر نشاطاً .

العثمانيون والدولة الصفوية :

بدأت الدعوة الصفوية في منطقة أردبيل بشمالي بلاد فارس في القرن الخامس عشر كطريقة صوفية أقرب في طابعها الصوفي إلى المذهب السني من الشيعي ، ولم تعلن الدولة الصفوية في مراحلها الأولى عن هويتها الشيعية تقية، لخوف الصفويين الأوائل من المواجهة مع السكان المحليين ومعظمهم يتبعون المذهب السني، كما أن إيران ضمت نتيجة للهجرات المتكررة من وسط آسيا عناصر متعددة يصعب السيطرة عليها، وكان الشاه إسماعيل أول من أعلن هوية الدولة فأعلن المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة ، وأشهر السلاح في وجه معارضيه ، وبخاصة علماء السنة، فأرغمهم على اعتناق المذهب الشيعي ولعن الخلفاء الأوائل، ولجأ الشاه إسماعيل إلى تجنيد قبائل القزلباش التركية الشيعية فجعلها نواة لقواته العسكرية .

كان الشاه إسماعيل شديد البأس على أعدائه ومعارضيه، ففرض مذهبه على أهل السنة في البلدان التي دانت له بالقوة في إيران وتبريز وأذربيجان وخراسان وأجزاء من العراق، وشجع قواته على ممارسة القسوة فقتلوا أعداداً لا حصر لها ، وبخاصة من علماء السنة وأحرق كتبهم، وقسم بين جنده ما نهبوه من أموال دون أن يأخذ منه شيئاً، ولم تنكس رايته في حرب خاضها قبل چالديران ١٥١٤م ، حيث لقي أول هزيمة له على يد السلطان العثماني سليم الأول .

اعتمد الشاه إسماعيل الصفوي سياسة التسلل على حساب الغرب الإسلامي السني، فكان يرسل أتباعه من دعاة المذهب الشيعي يمارسون الدعوة بشكل سري في الأقاليم التابعة للدولة العثمانية والعراق، فلما اكتشفت أجهزة الدولة العثمانية – الأمر ألقت القبض على عدد كبير من هؤلاء الجواسيس فقتل عدد منهم وألقي بالبقية في غياهب السجون، ثم أرسل السلطان سليم الأول إلى الشاه إسماعيل يوبخه متهماً إياه بالهرطقة، ويدعوه إلى الإسلام وإلا فالحرب، فرد عليه الشاه بخطاب ليس فيه إلا قطعة من الأفيون، إيحاء بأن الخطاب الوارد من السلطان سليم قد كتب تحت تأثير المخدر ، ليعلن قبوله للتحدي ، فلم يبق بينهما إلا الحرب .

تقدم السلطان سليم الأول بالجيوش العثمانية نحو أذربيجان ، لكن الشاه إسماعيل لم يتحرك لمقابلته ، محاولاً تأجيل المقابلة لتواجه القوات العثمانية برد الشتاء القارص ، لكن السلطان سليم حاول الإسراع باللقاء قبل الشتاء فأرسل برسالة إلى الشاه إسماعيل وبها خرقة ومسبحة ، في إشارة إلى أصله الصوفي المتواضع ، ولما علم السلطان سليم باستعداد خصمه للقتال، توجه إلى صحراء چالديران بالقرب من تبريز عاصمة الصفويين لتكون ميداناً للقتال، حيث اتخذت القوات العثمانية وضع الاستعداد فاحتلت الربا والمواقع الإستراتيجية ، فألحقت بقوات القزلباش الصفوية هزيمة ساحقة ، فلاذ الشاه إسماعيل الصفوي بالفرار، ودخل السلطان سليم العاصمة الصفوية تبريز ، لتكون مركزاً لعملياته العسكرية، ومن المفترض أن يتابع السلطان سليم انتصاره في جالديران بالقضاء على الدولة الصفوية وأن يرث ملكها ، لكنه انسحب قبل أن يحل الشتاء القارص بسبب تمرد قوات الانكشارية ورفضها البقاء في تلك البقاع شديدة البرودة .

عاد السلطان سليم الأول إلى بلاده بعد چالديران مكتفياً من الغنيمة بالسيطرة على المناطق الشرقية من آسيا الصغرى التي سيطر عليها الشاه إسماعيل من قبل، كما سيطر على ديار بكر ، ووضع حداً لانتصارات الشاه إسماعيل، فحاول الأخير أن يبحث عن سند خارجي قوي بالتحالف مع البرتغاليين في سواحل الخليج العربي ، وكان البرتغاليون يبحثون عن موطأ قدم لهم في الخليج المذكور بعد أن احتل البوكيرك هرمز لكنه كان يواجه بثورات أهلها، أقر الشاه إسماعيل الوجود البرتغالي في هرمز، وأغراه البوكيرك بمهاجمة جزيرة العرب والدولة العثمانية ووعده بالمساعدة ، لكنها كانت مجرد وعود لم ترق إلى واقع ، والهدف منها استمرار الصراع بين الصفويين والعثمانيين ليبقى العثمانيون بعيدين عن أوربا فلا يهددون ممالكها ولا يمدون يد المساعدة لمسلمي الأندلس ، وفي الوقت نفسه يفرض البرتغاليون سيطرتهم على الخليج العربي والنتيجة أن البرتغاليين أعداء الأمة تمكنوا من المياه الإسلامية في الخليج العربي فحرموا المنطقة من عوائد التجارة ، ولم يجن الصفويون من هذه المحاولة أية ثمار.

تكررت المواجهة مرة ثانية بين العثمانيين والصفويين عقب وفاة طهماسب ، نجحت القوات العثمانية مستغلة ما تمر به الدولة الصفوية من ضعف واضطراب في تحقيق انتصار على القزلباش ودخلت تبريز للمرة الثانية ١٥٨٥م واستولت القوات العثمانية على بلاد القوقاز وأذربيجان والكرج وجورجيا وشروان، حتى إذا ما وصل الشاء عباس الكبير إلى حكم الدولة الصفوية عقد صلحا مع الدولة العثمانية وتعهد بعدم سب الخلفاء الراشدين في مملكته وبعث بأحد أفراد أسرته رهينة في البلاط العثماني ضماناً لتنفيذ التعهدات الصفوية .

وما أن اكتملت للشاه عباس أسباب القوة وأحس بضعف الدولة العثمانية حتى شرع في استرداد الأقاليم التي احتلها العثمانيون من قبل، كما ضم أجزاء كبيرة من العراق، فضم بغداد والنجف وكربلاء، وقام الشاه عباس بزيارة مقدسات الشيعة في النجف وكربلاء، وتحالف الشاه عباس مع القوى الأوربية ضد الدولة العثمانية .

المحاضرة السابعة

ضم دولة المماليك

بعد أن فرغ سليم الأول من أمر الدولة الصفوية وأكد سلطانه على المناطق الشرقية توجه نحو أملاك دولة المماليك، وفي رأينا تنحصر الأسباب الحقيقية لتوجه السلطان سليم الأول بقواته ضد المماليك إلى سببين أساسيين هما :

أولاً/ ضعف دولة المماليك ، فلم تعد قادرة على الدفاع عن أملاكها وهذا ما أغرى السلطان العثماني بها ، وهذا ضعف طبيعي في تاريخ الدول وأعمارها، فدولة المماليك كانت تمر أنذاك بمرحلة الشيخوخة ، وزاد من هذا الضعف التنافس والتحاسد بين قادة المماليك ، وفساد الجهاز الإداري وانتشار الرشوة .

ثانياً/ أن الاستيلاء على أملاك دولة المماليك سيسهل مهمة الدولة العثمانية في مواجهة البرتغاليين والدفاع عن مقدسات المسلمين ، وهذا يرفع من مكانة الدولة العثمانية في العالم الإسلامي ، ويجعل منها القوة الإسلامية الأولى في العالم .

التقت القرات العثمانية مع القوات المملوكية بقيادة قنصوه الغوري في معركة مرج دابق ١٥١٦م وكانت الكلمة القوات العثمانية الأكثر تنظيماً والأحدث أسلحة ، وقتل في ميدان المعركة السلطان الغوري ، فأمر السلطان سليم الأول به فأقيمت عليه صلاة الجنازة ودفن على مشارف حلب ، ودخلت القوات العلمانية حلب لم تعلق وتقدمت في مدن الشام دون مقاومة لذكر على دانت الشام كلها العثمانيين، وسكت العملة باسم السلطان سليم الأول ودعي له على منابرها .

أرسل السلطان سليم إلى طومان باي في مصر يدعوه إلى الدخول في طاعته سلما، وعلى غير العادة أساء المماليك استقبال رسل السلطان العثماني فقتلوهم ، وتقدمت قوات المماليك نحو بلاد الشام الملاقاة القوات العثمانية ، فلم يتركوا أي فرصة لتفادي الحرب ، تقدمت القوات العثمانية نحو مصر فالتقت بقوات المماليك عند غزة فانهزم الجيش المملوكي وتراجع إلى الزيدانية ، حيث لحق بالمماليك هزيمة ساحقة عام ١٥١٧م وقتل طومان باي تحت أرجل الخيل، ويرجع سبب الهزيمة إلى اعتماد المماليك على الأسلحة القديمة والمدافع الثقيلة التي يصعب تحريكها بينما اعتمد الجيش العثماني على الأسلحة الحديثة والمدافع الخفيفة ، فتمكنت القوات العثمانية من الدوران خلف المدفعية المملوكية وتطويق القوات المملوكية ، وكان عدد من قادة المماليك قد تنبأ بمصير المعركة فانحاز إلى الجانب العثماني ، ومنهم جان بردي الغزالي الذي أعطاه السلطان سليم حكم دمشق ، وخير بك الذي أسند إليه السلطان سليم حكم مصر .

جعل السلطان سليم الأول من مصر والشام ولايتين تابعين للدولة العثمانية ، وبدأ بالعفو عن بقي من المماليك الجراكسة ومن أولادهم ، وحفظ عليهم أموالهم ولم يتعرض للأوقاف بل تناولها بالتنظيم وقرى مرتبات الموظفي الأوقاف وحدد غلال الحرمين ، ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف المرابطين وحماة القلاع وأبطل المظالم والعكوس والمغارم ، ثم عاد إلى بلاده وفي صحبته الخليفة العباسي ، كما اصطحب معه مجموعة منتقاة من أرباب الحرف والصناعات التي لا توجد في بلاده .

ترك العثمانيون للمماليك أمر العظيم الأمور الداخلية في يد المماليك الذين استسلموا لهم ، ومنهم خيري بك الذي ولاه السلطان سليم حكم مصر وجان بردي الغزالي الذي ولاه حكم الشام ، وهذه عادة العثمانيين في إدارة الأقاليم المفتوحة ، حيث تسند الإدارة لأهل الخبرة في الإقليم ، وهذا النظام له إيجابياته وسلبياته .

ضم الحجاز واليمن

كانت الحجاز تابعة لسلطان المماليك، ولكن مع وصول أنباء هزيمة المماليك في الشام ومصر أعلن الشريف بركات شريف مكة المكرمة ولاده للسلطان سليم الأول وأرسل إليه بمفاتيح الكعبة، فأقره السلطان سليم أميراً على حكم الحجاز، جرياً على عادة العثمانيين في التعامل مع من يستسلم لهم، وبذلك حاز السلطان سليم مكانة عظيمة في العالم الإسلامي باعتباره خادم الحرمين الشريفين وحامي حمى المقدسات الإسلامية ، ومكن الدولة العثمانية من التصدي للعدوان البرتغالي .

وعلى خطى الشريف بركات أرسل حاكم اليمن المملوكي الجركسي "إسكندر" وفداً إلى السلطان سليم يقدم فروض الولاء والطاعة ، فأبقاه السلطان سليم في منصبه يحكم باسم الدولة العثمانية ، وبذلك فرضت الدولة العثمانية سيادتها على البحر الأحمر كاملاً ، وبدأت تتحكم في مدخله الجنوبي ، واليمن ذات موقع استراتيجي مهم . وقد وقعت الدولة العثمانية في خطأ بتأخرها في تأكيد سيادتها بمزيد من القوات العسكرية على اليمن نظراً لما لهذا البلد من مشكلات سياسية ، فالصراع قائم بين الإمامة الزيدية والسلطة المملوكية ، والوجود البرتغالي آنذاك قوي في بحر العرب بما يهدد هذا البلد . وعندما استشعر العثمانيون الخطر البرتغالي أرسل السلطان العثماني حملة بحرية من أربع وسبعين سفينة وعشرين ألف مقاتل عام

١٥٣٨م لإحكام السيطرة على مضيق باب المندب ، فأحكمت القوات العثمانية سيطرتها على عدن عام ١٥٣٩م ، ثم تعز عام ١٥٤٥م ، فصنعاء عام ١٥٤٧م ، كما احتل الأسطول العثماني الساحل المقابل في سواكن ومصوع على الساحل الغربي للبحر الأحمر عام ١٥٥٧م ، ومع ذلك ظلت الإمامة الزيدية مناوئة للوجود العثماني في اليمن إلى أن قضت عليه سنة ١٦٣٥م .

الصراع العثماني البرتغالي:

مما لاشك فيه أن الدافع الديني كان له أهمية كبرى في حركة الكشوف الجغرافية ، بعد الدافع الاقتصادي ، فحركة الاسترداد المسيحي لشبه جزيرة أيبيريا والصراع الإسلامي المسيحي ترك بصمة واضحة على حركة الكشوف الجغرافية ، لاسيما البرتغالية منها التي حاولت الاستيلاء على أجزاء من المغرب العربي ثم حاولت فرض سيطرتها على البحر الأحمر والخليج العربي في طريقها إلى الهند .

وتحليل خطاب القائد البرتغالي البوكيرك في جنوده عندما استولى على ملقا يؤكد الاتجاه الديني للنشاط البرتغالي في المنطقة العربية، إذ أكد أن الهدف البرتغالي هو حرمان المسلمين العرب من عوائد التجارة بهدف إضعاف قوة المسلمين ، لتصبح مكة والقاهرة أثراً بعد عين . وقال القائد المذكور في يومياته "إن هدفنا الوصول إلى الأماكن المقدسة للمسلمين واقتحام المسجد النبوي ونبش قبر النبي محمد وأخذ رفاته .

وقد ساعد البرتغاليون في تحقيق أهدافهم في الجنوب العربي ضعف المماليك وانشغالهم بمشكلاتهم الداخلية ، فتركوا سكان عدن والخليج العربي يواجهون البرتغاليين بأنفسهم ، وكانت الكلمة للأسلحة الحديثة البرتغالية المتقدمة ، وعندما حاول المماليك إرسال أسطول بحري ليتصدى للبرتغاليين في البحر الأحمر، الحق البرتغاليون الهزيمة بهذا الأسطول عند جزيرة ديو سنة ١٥٠٩م .

وبعد أن سيطر العثمانيون على العالم العربي أصبح البحر الأحمر بحيرة عثمانية، فتم طرد البرتغاليين من كافة موانى البحر الأحمر حتى مقديشيو وممبسة ، وأصدر سليمان القانوني أوامره إلى واليه على مصر سليمان باشا الخادم يأمره بإعداد أسطول قوي في ميناء السويس وتسييره إلى الهند لتأمين تجارة المناطق العربية عبر البحر الأحمر والخليج العربي وإزالة آثار العدوان البرتغالي في هذه المناطق . وكادت الحملة أن تحقق كافة أهدافها لولا وصول إمدادات برتغالية عززت الوجود البرتغالي في الهند، لكن الحملة نجحت في إبعاد الخطر البرتغالي عن المناطق العربية في البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي . وعادت تجارة الهند مع البنادقة عبر الموانئ العربية تنتعش مرة أخرى، فتوافدت السفن الهندية محملة بالتوابل على ميناء جدة، واشترى البنادقة في عام ١٥٥٤م من الموانئ الإسلامية حوالي ستة آلاف قنطار من التوابل والبضائع الهندية .

المحاضرة الثامنة

الدولة العثمانية والمغرب العربي

تحمل الساحل الشمالي الغربي للمغرب العربي الضربات الأولى للهجمات البرتغالية والإسبانية التي جاءت في إطار حركة الاسترداد المسيحي لشبه جزيرة أيبيريا، وبخاصة مع اعتقاد المسيحيين في البلدين المذكورين بأن بلدان المغرب العربي مدت في عمر الوجود الإسلامي في الأندلس ما يقرب من مائة عام ، وتحت وطأة حركة الاضطهاد ضد المسلمين في شبه جزيرة أيبيريا زحفت هجرات كبيرة من الأندلس إلى شمال أفريقيا ، الأمر الذي سبب خللا اجتماعياً وسياسياً في المنطقة ، وتبلورت من المهاجرين الذين لهم دراية بالبحر حركة مقاومة ضد النشاط البحري الإسباني والبرتغالي وفرسان القديس يوحنا في شمال أفريقيا ، تزعم هذه الحركة الأخوان عروج وخير الدين بربروسا ، وترجع أصول والدهما إلى الأتراك جاء مع الفاتحين واستقر في جزر الأرخبيل ، وأمهما من مسلمي الأندلس .

كان الشمال الأفريقي فيما عدا المغرب الأقصى يعاني فراغاً سياسياً آنذاك ، فاستعان الأهالي في الجزائر بالأخوين عروج وخير الدين لحمايتهم من العدوان الصليبي ، فاستقر الأخوان في حكم الجزائر ونجحا في التصدي للإسبان وأخرجوهم من بجاية، وفي عرض البحر مارس الأخوان حرب الكر والفر ضد السفن الإسبانية والبرتغالية لعدم القدرة على ممارسة حرب نظامية، وعلى الرغم من أن حركة الجهاد هذه كبدت الجانب الأوربي خسائر فادحة إلا أنها كانت في خطر لعدم تكافؤ القوى ، لذا لجأ الأخوان إلى التحالف مع القوة الإسلامية الكبرى آنذاك ممثلة في الدولة العثمانية ، وكانت حركة الجهاد قد فقدت عروج الذي قتل أثناء حصار تلمسان

لتخليصها من الإسبان سنة ١٥١٨م ، فأرسل خير الدين بهدية إلى السلطان سليم عقب ضمه مصر والشام وعودته إلى استانبول ، مع رسالة موقعة من مشايخ الجزائر وقضاتها ووجهائها نيابة عن سكانها، وحملها إلى استانبول سفارة على رأسها الفقيه أبو العباس بن أحمد، فرحب السلطان سليم وأقر خير الدين بربروسا على حكم الجزائر ومنحه رتبة بكلر بك وأرسل له دعماً مؤقتاً أربع عشرة سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود .

بذلك دخلت الجزائر رسمياً برغبة أهلها تحت الحكم العثماني منذ عام ١٥١٩م ، وأرسل السلطان سليم قوة من المدفعية للدفاع عن الجزائر مع ألفين من قوات الإنكشارية ، ودعي للسلطان العثماني على منابرها وسكت العملة باسمه . وأصبحت الجزائر قاعدة عثمانية تنطلق منها عمليات الجهاد والوسع، فأمر السلطان سليمان القانوني ببناء أسطول عثماني يرابط في شمال أفريقيا يتولى الدفاع عن تلك المناطق . نجح خير الدين تحت سيادة العثمانيين في تطهير الجيوب الساحلية من الوجود الإسباني وتوحيد المغرب الأوسط (الجرائر) وتطهيره من عملاء الإسبان ، وبدا خير الدين والدولة العلمانية وتطلعان إلى تونس لما لها من أهمية إستراتيجية في مواجهة إيطاليا ، وكانت الدولة الحفصية في حالة من الضعف والانهيار، ولسلطانها علاقات مريبة مع الإسبان ، استدعى السلطان العثماني القانوني خير الدين إلى استانبول ، فسافر إليه حيث لقي حفاوة بالغة باعتباره أحد المجاهدين العظام ، فطلع عليه لقب قبودان باشا أي وزير البحار وزوده بأسطول عظيم. عاد خير الدين فهاجم في طريقه جنوب إيطاليا ثم هاجم سواحل تونس ومدتها فاستولى عليها بسهولة بينما فر السلطان الحفصي الحسن بن محمد إلى إسبانيا ، أعلن خير الدين ضم تونس ١٥٣٤م إلى أملاك الدولة العثمانية وعين عليها الرشيد الحفصي شقيق الحسن بن محمد ممثلاً للسلطان العثماني .

لم يبقى ملك تونس في يد العثمانيين سوى عام واحد فقام الإمبراطور شارل الخامس بحملة كبيرة من خمسمائة سفينة حربية ونجح في هزيمة القوة العثمانية بتونس وسلمها لحليفه الحسن بن محمد، فعادت تونس للحكم الحفصي مرة أخرى سنة ١٥٣٥م ، وفضلت جهود المسلمين في استعادتها، على الرغم من النجاح الذي حققه خير الدين بربروسا ضد السفن التجارية الإسبانية ، وحاول الإسبان الاستيلاء على الجزائر دون جدوى، وبقيت تونس في يد الحفصيين تحت الحماية الإسبانية حتى تمكن فلج على بكاربك الجزائر من استعادتها سنة ١٥٧٠م في عهد السلطان سليم الثاني .

وإذا كان العثمانيون قد نجحوا في ملئ الفراغ السياسي في الجزائر وتونس وآل إليهم حكم ولاية طرابلس وتمكنوا من إثراء حركة الجهاد الإسلامي في البحر المتوسط فإن المغرب الأقصى كانت تشغله قوة كبرى ممثلة في الدولة السعدية الشريفية التي نجحت في صد العدوان الصليبي عن أقرب الشواطئ الإسلامية إلى شبه جزيرة أيبيريا ، ولعل هذا الوجود السعدي يفسر فشل الإسبان والبرتغاليين في احتلال أقرب السواحل الإسلامية لهم في إطار هجمتهم الشرسة على العالم الإسلامي عقب نجاحهم في استرداد شبه جزيرة أيبيريا من يد المسلمين ، بلغ العدوان الأوربي ضد المغرب الأقصى ذروته – مستغلاً الخلاف على العرش السعدي في معركة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة ملك إسبانيا وملك البرتغال وإمبراطور ألمانيا سنة ١٥٧٨م ، لكن المعتصم بالله السعدي نجح في هزيمتهم وقتل الملوك الثلاثة .

ضم العراق وشرق شبه الجزيرة العربية :

استولى السلطان سليم الأول على شمالي العراق بعد انتصاره على الشاه إسماعيل الصفوي في جالديران عام ١٥١٤م ، وبقيت بغداد في يد الشاه إسماعيل حتى وفاته في عام ١٥٢٤م ، بينما كانت البصرة تحت سيادة أحد رؤساء القبائل العربية استغل ذو الفقار خان الكردي فرصة وفاة الشاه إسماعيل وزحف على بغداد فدانت له وقتل حاكمها الصفوي سنة ١٥٢٤م، وأعلن ذو الفقار ولاءه للسلطان سليمان القانوني وطلب منه الحماية ، جهز طهماسب حملة لاسترداد بغداد سنة ١٥٣٠ م لكنه فشل ، فلجأ إلى التآمر ونجح في اغتيال ذو الفقار فدانت له بغداد استشعر السلطان العثماني الخطر الشيعي فقرر توجيه ضربة وقائية تشبه الديران. أصدر السلطان سليمان القانوني أوامره إلى الصدر الأعظم بقيادة الحملة في نيسان عام ١٥٣٤م من حلب ، استهدفت الحملة تأمين المناطق الشرقية من الدولة العثمانية ، ثم توجهت إلى أذربيجان ودخلت تبريز ومكثت إلى أن لحق بها السلطان في أيلول ، ثم توجهت الحملة نحو بغداد ، فاستولت على سهول العراق ومنعت وصول الإمدادات الصفوية إليها ، فقر حاكمها الصفوي نحو بلاد فارس ، وقضى السلطان سليمان الشتاء في بغداد، ثم عاد إلى استانبول ماراً بتبريز بعد أن عين سليمان باشا المجري والياً على بغداد .

وبذلك فرض العثمانيون سيطرتهم على وسط وشمال العراق ، أما البصرة فكان حكامها من مشايخ العرب يخضعون لحاكم بغداد بصرف النظر عن انتماءاته ، فكان راشد بن مغامس حاكم البصرة خاضعاً للشاه الصفوي ، ثم أعلن ولاءه للسلطان العثماني بمجرد استيلائه على بغداد، فأقره السلطان العثماني حاكماً لجنوب

العراق ، وأصبحت العراق كلها خاضعة للعثمانيين ، لكن سرعان ما قام تمرد قبلي في جنوب العراق انضم إليه راشد فأمر السلطان العثماني إياس باشا واليه على بغداد أن يقود حملة تأديبية ضد قبائل الجنوب عام ١٥٤٦م ، أطاحت الحملة بالتمرد وأكدت السيادة العثمانية على جنوب العراق ، فيما فر راشد بن مغامس إلى الأحساء، وهي إقليم شبه مستقل يخضع لحاكم يتمتع باستقلال ذاتي ، لكنه يدفع ضريبة سنوية للدولة العثمانية حاولت الدولة الصفوية استعادة سيطرتها على العراق مرة أخرى سنة ١٦٠٢م ، لكن الدولة العثمانية تمكنت في عهد مراد الرابع من إعادة العراق إلى حظيرة الدولة العثمانية عام ١٦٣٨م ، وظلت العراق تحت السيادة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى .

وبذلك وصلت الدولة العثمانية إلى أقصى اتساعها، فغدت أملاكها منتشرة في قارات العالم القديم آسيا وأروبا وأفريقيا ، وأصبحت تشرف على البحرين المتوسط والأحمر والخليج العربي علاوة على تحكمها في مدخل البحر الأسود ، لتكون في تماس مع الغزاة الأوربيين وتتصدى لأطماعهم في ديار المسلمين ما يقرب من ثلاثة قرون من عمر التاريخ الحديث .

المحاضرة التاسعة

المسألة الشرقية

وهو مصطلح أطلقه الأوربيون على الدولة العثمانية ، وقد مر ذلك المصطلح بمرحلتين هما :

الأولى : عندما كانت الدولة العثمانية قوية وكان الأوربيون يبحثون عن وسيلة لإيقاف الزحف العثماني الذي أحذ يهدد كامل القارة الأوربية .

الثانية : عندما أصبحت الدولة العثمانية ضعيفة ولم تعد ذلك الخصم الذي يشكل خطرًا على الدول الأوربية ، فأخذت تلك الدول تبحث عن آلية أو وسيلة لتقسيم أملاك الدولة العثمانية ، لأن اختلاف المواقف وتضارب المصالح بين دول أوربا أدى إلى حدوث مشاكل وصدمات بينها .

وعلى ضوء ذلك يمكن القول بأن المسألة الشرقية هي بالأساس مسألة أوربية (غربية) ، فهي تلك المواجهات والمناورات والمشاكل التي حدثت بين دول أوربا فيما بينها من جهة ، وضد الدولة العثمانية من جهة الأخرى خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر حول مصير الدولة العثمانية أو الرجل المريض كما أطلق عليها قيصر روسيا نيقولا الأول ، إذ كانت الأخيرة طامعة بالتوسع على أملاك العثمانيين ، وقد ظهر ذلك الأمر بشكل جلي عندما وقفت بريطانيا ضد الأطماع الروسية والنمساوية بهدف مد نفوذها والسيطرة على تلك الممتلكات .

تخللت المسألة الشرقية عدة حروب عرفت باسم أزمات المسألة الشرقية وهي:

١- الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ١٧٩٨-١٨٠١ .

٢- الثورة اليونانية ١٨٢١-١٨٢٩ .

٣- المسألة المصرية أو أزمة محمد علي باشا ١٨٣١-١٨٤٢ ، المعروفة بحملة إبراهيم باشا على الشام .
٤- حرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦ .
٥- الحرب الروسية العثمانية ١٨٧٧-١٨٧٨ .

مواقف الدول الأوربية من المسألة الشرقية :

بريطانيا : كان الموقف البريطاني من المسألة الشرقية والرجل المريض واضحًا ، إذ أيدت بريطانيا الحفاظ على وحدة أملاك الدولة العثمانية ، وبذلت كل ما بوسعها لصد الأطماع الروسية والنمساوية ، فقد عبر رئيس وزراء بريطانيا عن الموقف البريطاني تجاه الدولة العثمانية بقوله : " أنه من واجب بريطانيا الحفاظ على سلامة الرجل المريض ومنع روسيا ووالي مصر محمد على باشا من احتلال الدولة العثمانية حتى لو كلف الأمر الدخول في حرب ضدهما " .

وقد ارتكز الموقف البريطاني على مبدأين أساسيين هما :
١- الحفاظ على ميزان القوى في القارة الأوربية .
٢- الحفاظ على المصالح البريطانية في الدولة العثمانية وتأمين طرق المواصلات البريطانية وخاصة طريق الهند .

روسيا : كان الموقف الروسي من الدولة العثمانية (الرجل المريض) موقفًا عدائيًا ، فقد اعتبرت روسيا نفسها الوريث الطبيعي والشرعي للإمبراطورية البيزنطية الي قضت عليها الدولة العثمانية وتأسست على انقاضها منذ القرن الخامس عشر ، وتحديدًا فتحها للقسطنطينية عام ١٤٥٣ ، ومنذ ذلك الوقت عملت روسيا للحصول على مطامعها في الدولة العثمانية الى السيطرة على مواقع في البحر الأسود والوصول إلى المياه الدافئة ، والسيطرة على مضيقي البسور والدردنيل ، وفضلًا عن ذلك فقد اعتبرت روسيا نفسها مسؤولة عن الشعوب السلافية والطوائف الأرثوذكسية في الدولة العثمانية ، لذا سدت لسيطرة على منطقة لبلقان من أجل تأسيس

إمبراطورية تضم تلك الشعوب والطوائف ، وعلى ضوء ذلك كانت روسيا تبحث عن أية ذريعة لإعلان الحرب على الدولة العثمانية بغية تحقيق أطماعها ، إلا أن الموقف الروسي لاقى معارضة شديدة من قبل بريطانيا التي وجدت في ذلك الموقف تهديدًا لمصالحها .

فرنسا : كان الموقف الفرنسي مشابهًا للموقف البريطاني ، فقد أيدت فرنسا الحفاظ على وحدة أملاك الدولة العثمانية ، وعارضت التوسع الروسي والنمساوي على حساب الأراضي العثمانية مما أدى إلى توثيق العلاقات الفرنسية العثمانية لعدة قرون ، إلا أن الموقف الفرنسي تغير في أواخر القرن الثامن عشر وذلك بعد حملة نابليون على مصر ودعم فرنسا لمحمد علي باشا والي مصر ، ثم عاد بعد انقضاء حكم محمد علي باشا إلى سابق عهده .

أما عن أهم أحداث المسألة الشرقية فهي :

أولًا/ الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ : كانت الحلمة الفرنسية على مصر من أبرز أحداث المسألة الشرقية ، ويرى بعض المؤرخون أنها البداية الفعلية لتلك المسألة ، إذ أظهرت وللمرة الأولى مدى ضعف الدولة العثمانية من جهة ، وإمكانية الهجوم عليها في أراضيها والتغلب عليها من جهة أخرى ، مما أدى إلى فتح باب الصراع بين الدول الأوربية حول تحقيق أكبر قدر ممكن من المصالح في أرجاء الدولة العثمانية .

أسباب الحملة الفرنسية :

١- أرادت فرنسا ضرب المصالح البريطانية بعد أن فشلت عسكريًا في مهاجمة بريطانيا في أوربا ، وذلك من خلال قطع طريق الموصلات بين مستعمرات الإمبراطورية البريطانية سواءً في الهند أو شر أفريقيا .
٢- أرادت حكومة (الإدارة) الفرنسية إبعاد نابليون عن فرنسا بسبب زيادة شعبيته نتيجة للانتصارات التي حققها في أوربا .

نتائج الحملة الفرنسية :

لم تحقق الحملة الفرنسية الأهداف العسكرية والاستراتيجية ولكنها أدت إلى عدة نتائج أهمها :

١- أثارت اهتمام الأوربيين بمصر بعد أن كشفت عن تاريخ مصر في العصور القديمة .

٢- بينت الحملة لبريطانيا مدى أهمية مصر كجسر يربط بين الشرق والغرب .

٣- أدت الحملة إلى أضعاف قوة المماليك في مصر ومهدت لظهور محمد علي باشا .

٤- زادت الحملة من اهتمام بريطانيا بصر والتي لعبت دورًا مهمًا في دعم الدولة العثمانية ووقفت ضد الأطماع الروسية وضد سياسة محمد علي باشا التوسعية.

ثانيًا/ الثورة اليونانية ١٨٢١-١٨٢٩

نشبت ثورة عام ١٨٢١ في شبة جزيرة المورة (اليونان) ضد الحكم العثماني ، وقد اتخذت تلك الثورة طابع ديني وقومي وتعود أسبابها إلى ما يأتي :

١- رغبة سكان اليونان المسحيين في التحرر والاستقلال من الحكم العثماني الإسلامي .

٢- ازدياد الوعي القومي لدى اليونانيين وتأثرهم بمبادئ الثورة الفرنسية .

٣- الاستياء العام في اليونان من الولاة العثمانيين وكثرة الضرائب المفروضة عليهم .

٤- تشجيع روسيا لليونانيين وتحرضيهم للقيام بثورة ضد الدولة العثمانية .

أحداث الثورة : استغل اليونانيون ضعف الدولة العثمانية فأعلنوا الثورة ضد الحكم العثماني ، وقد حقق الثوار اليونانيين مكاسب سريعة في بداية الثورة التي امتدت لتشمل معظم الجزر اليونانية ، فطب السلطان العثماني محمود الثاني من والي مصر محمد علي باشا المساعد لإخماد تلك الثورة ، فستجاب والي مصر لذلك الطلب

مقابل منحه جزيرة كريت ، وقاد إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا جيشًا لإخماد الثورة اليونانية ، إذ نزلت القوات المصرية عام ١٨٢٤ في الجزر اليونانية وحققت تقدمًا سريعًا في المناطق الثائرة وألحقت هزائم كبيرة باليونانيين .

مواقف الدول الأوربية من الثورة اليونانية :

موقف بريطانيا : أيدت بريطانيا مطالب اليونانيين في الاستقلال وتعاطفت معهم ، إلا أنها تخوفت من استغلال روسيا لتلك الثورة من أجل التدخل في شؤون الدولة العثمانية ، لذا عملت بريطانيا على إجبار القوات المصرية على الانسحاب من اليونان .

موقف روسيا : دعمت روسيا الثورة اليونانية وقدمت المساعدات العسكرية والمادية لليونانيين خلال تلك الثورة .

موقف فرنسا : كان الموقف الفرنسي غامضًا من الثورة اليونانية إلا أنها تخوفت من استغلال روسيا للثورة من أجل تحقيق أطماعها .

ونتيجة لتلك الموقف فقد تعاونت بريطانيا مع فرنسا وروسيا من أجل تهدئة الأوضاع وإخراج قوات محمد علي باشا من اليونان ، ففي عام ١٨٢٧ وجهت الدول الثلاث إنذارًا للسلطان العثماني لسحب قواته من اليونان ، إلا أن الأخير رفض ذلك ، وفي الوقت نفسه فشلت بريطانيا بإقناع محمد علي باشا بسحب قواته أيضًا ، فردت الدول الأوربية بمهاجمة الأسطول العثماني والمصري في معركة نفارينو البحرية والتي أسفرت عن إغراق وتدمير الأسطولين المصري والعثماني ، الأمر الذي اضطر والي مصر على سحب جيشه من اليونان ، وانتهت الحرب بين الدولة العثمانية والدول الأوربية بتوقيع اتفاقية عرفت باسم معاهدة أدرنه عام ١٨٢٩ والتي نصت على :

١- اعتراف السلطان العثماني باستقلال ذاتي لليونان .
٢- سحب القوات العثمانية والمصرية من اليونان .

٣- عدم تدخل الدول الأوربية في شؤون الدولة العثمانية .

آثار ونتائج الثورة :

١- عكست الثورة اليونانية مدى ضعف الدولة العثمانية بعد أن خسرت سيطرتها الفعلية على اليونان .
٢- أدت الثورة إلى خسارة محمد علي باشا لأسطوله البحري وضياع جهوده المالية ومقتل العديد من جنوده ، ومع ذلك أظهرت الحملة المصرية قوته مقابل ضعف الدولة العثمانية .
٣- ساهمت الثورة في قيام محمد علي باشا بحملة عسكرية على بلاد الشام وتوسيع مناطق نفوذه على حساب الدولة العثمانية .

المحاضرة العاشرة

أزمات المسألة الشرقية

ثالثًا/ المسألة المصرية ١٨٣١-١٨٤٠

سعى محمد علي باشا إلى تكوين دولة قوية تقوم على انقاض الدولة العثمانية يحكمها هو وأسرته من بعد ، كما أراد تلقين السلطان العثماني درسًا لأنه لم يفي بوعده له على منحه جزيرة كريت ، وعلى أثر ذلك قام بتجهيز حملة لضم بلاد الشام كونها مطقة متكاملة طبيعيًا مع مصر ، فخرجت الحملة من مصر عام ١٨٣١ بقيادة إبراهيم باشا وسارت برًا وبحرًا ، وقد نجحت الملة في تحقيق أهدافها ساعدها في ذلك ترحيب أله الشام بالحكم المصري بدلًا عن الحكم العثماني بعد أعلن محمد علي باشا عن رغبته بتكوين دولة عربية تعيد للعرب أمجادهم .

واصلت جيوش براهيم باشا انتصاراتها على القوات العثمانية التي تقهقرت إلى داخل الأناضول ، وبلغت القوات المصرية إلى منطقة كوتاهيه وأصبحت تهدد استانبول نفسها مما اضطر السلطان العثماني محمود الثاني إلى الاستنجاد بالدول الأوربية لإيقاف الزحف المصري ، إلا أن بريطانيا رفضت تقديم المساعدة للعثمانيين مما أجبر السلطان العثماني للتوجه إلى روسيا العدو التقليدي للدولة العثمانية ، فسارع الروس إلى ارسال سفنهم الحربية إلى مضيق البسفور ، وقامت بوساطة بين السلطان العثماني ووالي مصر نتج عنها توقيع اتفاقية كوتاهيه عام ١٨٣٣ والتي تضمنت :

١- تنازل السلطان العثماني عن مصر وبلاد الشام لمحمد علي باشا .
٢- تعيين إبراهيم باشا حاكمًا على بلاد الشام .
٣- انسحاب القوات المصرية من الأناضول .

لكن الدولة العثمانية دفعت ثمن تلك المساعدة الروسية عندما أجبرت على توقيع معاهدة مع روسيا عرفت باسم هنكيار اسكلسي والتي اعتبرت قمة النفوذ الروسي في الدولة العثمانية إذ نصت على :

١- قيام تحالف دائم بين روسيا والدولة العثمانية .
٢- تقوم روسيا بالدفاع عن الدولة العثمانية ضد أي عدوان خارجي .
٣- تضمنت المعاهدة شرطًا سريًا نص على إغلاق المضايق العثمانية في وجه السفن الحربية للدول الأوربية باستثناء روسيا .

أثارت تلك المعاهدة غضب كل من بريطانيا وفرنسا فعملتا على الغائها ، كما أن انتصارات محمد على باشا وتوسعه في بلاد الشام على حساب العثمانيين ورغبة بإنشاء دولة عربية موحدة تحت قيادة مصرية أثارت مخاوف الدولتين على مصالحهما في تلك المنطقة ، وتفويت الفرصة عليهما باقتسام أملاك الدولة العثمانية ، لذا عملت بريطانيا على حث السلطان العثماني وتشجيعه على استعادة أملاكه ، فجهز السلطان محمود الثاني جيشًا لمحاربة إبراهيم باشا ، فالتقى الطرفان في حزيران عام ١٨٣٩ في منطقة نصيبين ، وقد انتهت تلك المعركة بانتصار القوات المصرية ، وعندها أيقنت الدول الأوربية (بريطانيا ، فرنسا ، روسيا ونمسا) ضرورة إخراج إبراهيم باشا من سوريا ، فقدمت تلك الدول مقترحًا للسلطان لغرض عرضه على محمد علي باشا تضمن :

١- منح محمد علي حكمًا وراثيًا على مصر .
٢- تبقى عكا تحت حكمه طيلة حياته .
٣- يقوم محمد علي بالانسحاب من جزيرة كريت والحجاز وولاية اضنة .
٤- في حالة رفضه لتلك المقترحات يحرم من ولاية عكا ويمهل عشرة أيام أخرى ، وإذا لم يقبل يحرم من حكم مصر .

حاولت فرنسا الدخول كوسيط فيما حاول محمد علي باشا المماطلة ، إلا أن الدول الأوربية رأت في تلك المماطلة رفضًا لشروطها ، فقررت أن تتدخل عسكريًا لإجبار محمد علي باشا على الرضوخ لمطالبها ، فقامت كل من بريطانيا والنمسا بإنزال قوات عسكرية على شواطئ بلاد الشام ، مما اضطر محمد علي باشا للانسحاب من سوريا وإعادة الأسطول العثماني ، وكانت بريطانيا قد عقدت مؤتمرًا في لندن مع كل من بروسيا والنمسا وروسيا دون علم فرنسا انتهى بمعاهدة لندن في تموز عام ١٨٤٠ والتي نصت على :

١- بقاء محمد علي باشا واليًا على مصر وينتقل الحكم إلى الابن الأكبر .
٢- يدفع محمد علي باشا الضريبة المستحقة عن مصر للسلطان العثماني .
٣- تقليص عدد الجيش المصري إلى ١٨٠٠ مقاتل .
٤-يمنع محمد علي من بناء أسطول حربي إلا بموافقة السلطان العثماني .

وهكذا نجحت بريطانيا في إنهاء حكم إبراهيم باشا في سوريا وحافظت في الوقت نفسه على مصالحها في الدولة العثمانية ، إذ يعد فرمان الوراثة ضربة لمحمد علي باشا لأنه حطم أحلامه الرامية لبناء إمبراطورية عظمى تحمل اسمه واسم أحفاده من بعده

رابعًا/ حرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦

تعد حرب القرم أول حرب تقاتلت فيها الدول الكبرى منذ انتهاء الحروب النابليونية عام ١٨١٤ وقيام نظام فينا عام ١٨١٥ .

مواقف الدول الأوربية من حرب القرم :

موقف روسيا : كان لروسيا أهداف متعددة أهمها: السيطرة على مضيقي البوسفور والدردنيل ، ومن ثم النفوذ إلى البحر المتوسط والمياه الدافئة أو على الأقل ضمان حرية المرور لسفنها التجارية والحربية في كل الأوقات بتلك المضائق وإغلاقها أمام

السفن المعادية لها, كما ارادت بسط نفوذها على مناطق البلقان وفرض حمايتها على الشعوب السلافية لاسيما الشعوب المسيحية أتباع المذهب الأرثوذكسي ، هذا فضلاً عن أن روسيا طمحت في السيطرة على ولايتي "ولاشيا" و "مولدافيا" العثمانيتان في البلقان بسبب منافستها لميناء "أوديسا " الروسي في تصدير القمح .

موقف فرنسا : أما فرنسا فقد أرادت من حرب القرم أقناع الدول ألأوربية بمراجعة بنود معاهدة فينا لسنة ١٨١٥ ، والتي عزلت فرنسا سياسياً وقوضت حدودها الطبيعية وخنقت الحركات التحررية المطالبة بالوحدة لا سيما في إيطاليا .

موقف بريطانيا : أما بريطانيا فقد كانت على خلاف جذري مع روسيا حول المسألة الشرقية ، لا سيما فيما يتعلق بالمنافسة الاقتصادية على أسواق الدولة العثمانية ، فالمعاهدة التجارية التي عقدتها الدولة العثمانية مع بريطانيا عام ١٨٣٩ منحت الأخيرة تسهيلات تجارية في الأسواق العثمانية على حساب التجارة مع روسيا .

اتخذت روسيا من أزمة البقاع المسيحية في فلسطين والتي حدثت بينها وبين فرنسا ذريعة للإعلان الحرب على الدولة العثمانية ، و كان جوهر المشكلة يكمن في رفض فرنسا ادعاء روسيا حق الوصاية في الإشراف على إدارة الأماكن المسيحية المقدسة في القدس ، ولا سيما كنيسة الميلاد في بيت لحم ، فيما حاولت الدولة العثمانية المحافظة على التوازن بين المزاعم المتناقضة للكاثوليك المدعومين من فرنسا من ناحية ، والأرثوذكس المدعومين من روسيا من ناحية أخرى ، بيد أن السلطان العثماني عبد المجيد قرر عام ١٨٥٢ إعطاء بعض الامتيازات لرجال الدين الكاثوليك أهمها : تسليمهم المفاتيح الثلاثة الخاصة بالأبواب الرئيسية لكنيسة العذراء والسراديب الكائنة تحت كنيسة المهد في بيت لحم ، ورفض بتأثير من بريطانيا المطالب المماثلة التي تقدمت بها روسيا عن طريق مبعوثها سنة ١٨٥٣ ، فأدى ذلك إلى استياء روسيا ، فحاولت الأخيرة عزل فرنسا بكسب ود بريطانيا ، فعرضت عليها مشروعًا لتقسيم أملاك الدولة العثمانية "الرجل المريض" ، فتأخذ روسيا بموجبه المضايق وتحتل استانبول مؤقتًا ، أما الولايات العثمانية في أوربا فتتحد في دولة

مستقلة ، مقابل حصول بريطانيا على مصر ورودس وقبرص، غير أن بريطانيا رفضت ذلك المشروع .

نشوب الحرب : قطعت روسيا على أثر ذلك علاقاتها الدبلوماسية مع الدولة العثمانية وقامت بإعلان الحرب عليها ، فاحتلت مناطق فالاخيا ومولدوفا في الدانوب ومناطق أخرى في رومانيا ، بعد ذلك استرجع العثمانيون قوتهم وتمكنوا من صد الهجوم الروسي ثم تقدمت الجيوش العثمانية بقيادة عمر باشا الذي نجح في طرد الروس إلى مناطق ما وراء الدانوب وانتصر عليهم في القفقاس ، وعلى الرغم من إنهم كبدوا الجيش الروسي العديد من الخسائر في الأرواح والممتلكات إلا أن النصر كان حليف الروس في معركة سينوب البحرية التي قام فيها الأسطول الروسي بتدمير الأسطول العثماني في تشرين الثاني سنة ١٨٥٣ .

بعد هزيمة العثمانيين في معركة سينوب أيقنت بريطانيا وفرنسا إن مصالحهما التجارية والسياسية مهددة في الدولة العثمانية ، ولا سيما أن الروس أصبحوا على مشارف البحر المتوسط ، لذلك أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على روسيا في آذار عام ١٨٥٤ ، وقامتا بتوجيه أساطيلهما البحرية العسكرية الى البحر الاسود ، وفي أيلول نزلت جيوش الحلفاء في القرم ثم انضمت سردينيا الى جانب الحلفاء في كانون الثاني سنة ١٨٥٥ ، وهددت النمسا روسيا بدخول الحرب إلى جانب الحلفاء في حال عدم انسحابها من ولايتي الدانوب ، الأمر الذي اضطر الروس للرضوخ لمطالب النمسا فاحتلت النمسا الولايتين .

تقدم الحلفاء باتجاه ميناء سيفاستوبول القاعدة البحرية الروسية في شبه جزيرة القرم ، فقاموا بحصار الميناء مدة عام كامل لاقوا خلاله مصاعب كبيرة بسبب برودة الجو وتفشي وباء الكوليرا ، ووفي نهاية المطاف احتل الحلفاء ميناء سيفاستوبول في أيلول ١٨٥٥ بعد سلسلة من المعارك بين الطرفين سقط خلالها أكثر من خمسة وعشرين ألف قتيل من جميع الأطراف ، بيد أن كفة روسيا في جبهة القفقاس رجحت بعد أن استولوا على مدينة قارص .

توفي القيصر الروسي نيقولا الأول بعد معركة سيفاستوبول وخلفه في الحكم الاسكندر الثاني الذي ركز على الاهتمام في الأمور الداخلية ، و لما شعر بأن متابعة الحرب أصبح أمرًا صعبًا في ظل الأزمة المالية التي تعانيها روسيا والهزائم التي حلت بجيشه في الحرب ، فضلًا عن إنذار النمسا لروسيا مطلع عام ١٨٥٦ بضرورة إنهاء الحرب فاضطرت روسيا للقبول ذلك .

مؤتمر باريس عام ١٨٥٦

عقد مؤتمر الصلح في باريس في ٣٠ آذار سنة ١٨٥٦ وتضمن :

١- إلزام روسيا بالانسحاب من المناطق التي احتلتها في الدانوب ورومانيا,
٢- الإقرار بحرية الملاحة في الدانوب والبحر الأسود والاعتراف بالسيادة العثمانية على المضايق وعدم التدخل في شؤونها الداخلية .
٣- تتعهد الدولة العثمانية بتحسين أحوال الرعايا المسيحيين في البلقان ، كما تضمنت اعتراف السلطان بالمساواة التامة بين رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .
٤- أن تتمتع كل من ولايتي الأفلاق والبغدان وكذلك صربيا باستقلال ذاتي ضمن الدولة العثمانية .
٥- إعادة شبه جزيرة القرم إلى روسيا شريطة حرمانها من إقامة أسطول حربي في البحر الأسود .
٦- التأكيد على ضرورة قبول مبدأ التحكيم في حالة وقوع خلاف بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول ، واحتفظ العثمانيون بحق وضع حاميات في الأراضي الصربية .

نتائج حرب القرم :

بالنسبة للدولة العثمانية فعلى الرغم من انتصارها في حرب القرم واستعادة سيادتها على أمارات الدانوب إلا أن منح الأفلاق والبغدان وصربيا الاستقلال وفرض

الدول الأوربية شروطاً على السلطان للقيام بالإصلاحات الداخلية كان دليل على ضعف الدولة العثمانية وتدخل الدول في شؤونها الداخلية ، أما روسيا فكانت الخاسر الأكبر في تلك الحرب ، فقد تنازلت عن حماية الأرثوذكس وتنازلها أيضًا عن مصب نهر الدانوب ، وإعلان حياد البحر الاسود وإبقاء المضائق مغلقة ومجردة من السلاح ، فخسرت بذلك جميع الامتيازات التي حققتها منذ معاهدة كوجك كينارجي .

أما بالنسبة لبريطانيا فقد تمكنت في تلك الحرب من تحقيق أهدافها بأبعاد النفوذ الروسي عن استانبول والمضائق والبلقان ، والإبقاء على نفوذها في الدولة العثمانية . إلا أن النتيجة الأهم لتلك الحرب هي أنها مست النظام الأوربي في الصميم بأسقاط الحلف المقدس بين (روسيا وبروسيا والنمسا) القائم على دعم الأنظمة المحافظة ، وفضلاً عن ذلك فأن حرب القرم عززت نفوذ وهيبة الأسرة النابليونية تثميناً للدور الذي لعبه نابليون الثالث في مؤتمر باريس ، فعادت فرنسا لتحتل مكاناً مرموقاً في السياسة الدولية يخولها التدخل في الساحة الاوربية والمساهمة في تحقيق الوحدة الايطالية .

خامسًا/ الحرب الروسية العثمانية ١٨٧٧-١٨٧٨

جاءت الفرصة لتدخل الدول الاوربية على أثر الاضطرابات التي حدثت عام ١٨٧٥ في البوسنة والهرسك، بصورة من الصور، خسر الروس الحرب، ولكن في المقابل، تبنَّت الدولة العثمانية خطوة إصلاحية واسعة النطاق، وضعت نهاية لنظام الملل وأسست لمفهوم المساواة والمواطنة في الدولة. خلال السنوات القليلة التالية، أصلحت روسيا القيصرية التعثر الذي عانت منه في حرب القرم، وعزَّزت من تحركها في البلقان، وفي صفوف أرمن الأناضول. وفي ١٨٧٧-١٨٧٨، عاد الروس إلى الحرب ضد العثمانيين من جديد، بعد عام واحد فقط من صعود السلطان عبد الحميد الثاني إلى السلطنة ، وشهور فقط على إجراء أول انتخابات برلمانية عثمانية وانعقاد البرلمان الذي وُلد منها.

أسباب الحرب :

١- نشوب الثورات والتمردات في منطقة البلقان بدعم مباشرٍ من روسيا للمطالبة بالاستقلال عن الحكم العثماني .

٢- اعتبار روسيا نفسها المسؤولة عن الأرثوذوكس المسيحيين وعن الشعب السلافي في دول البلقان .
٣- رغبة روسيا في تقسيم الدولة العثمانية .
٤- محاولة روسيا الوصول إلى مضايق البلقان ومنها الوصول إلى المياه الدافئة (البحر المتوسط) .

مواقف الدول الأوربية :

بريطانيا : حرصت بريطانيا على مدى قرون عديدة على سلامة أراضي الدولة العثمانية وعدم تقسيمها بهدف الحفاظ على توازن القوى بين الدول الأوربية .
فرنسا: موقف فرنسا كان مشابهًا للموقف البريطاني بكل ما يخص الدولة العثمانية وسلامة أراضيها ، وخاصة المحافظة على الأماكن المقدسة .
ألمانيا : بعد أن حققت الدولة الألمانية وحدتها عام ١٨٧٠ أخذت تعمل على تقوية علاقتها مع الدولة العثمانية ، وذلك بهدف تحقيق سياستها الخارجية ، إذ كانت لها أطماع استعمارية في الدولة العثمانية مثلها مثل روسيا .
النمسا : اتخذت النمسا موقف الحياد إلا أنها أنها كانت ضد الموقف الروسي في تقسيم أراضي الدولة العثمانية .

نشوب الحرب وأهم نتائجها :

نشبت الحرب الروسية العثمانية عام ١٨٧٧ ، عندما اجتاحت الجيوش الروسية الأراضي العثمانية في منطقة البلقان ، وانضمت إليها رومانيا وصربيا

والجبل الأسود ، فاستطاعت روسيا احتلال أجزاء واسعة من الدولة العثمانية ، مما اضطر السلطان العثماني للتوقيع على صلح سان ستيفانو عام ١٨٧٧ ، والذي نص على ما يأتي :

١- حصول كل من رومانيا وصربيا والجبل الأسود على الاستقلال من الدولة العثمانية .

٢- فتح المضائق العثمانية للأسطول الروسي طيلة أيام السنة .
٣- إنشاء دولة بلغاريا المستقلة ذاتيًا والتابعة اسميًا للدولة العثمانية .
٤- سيطرة روسيا على شواطئ البحر الأسود ومعظم مناطق أرمينيا الشرقية .

هكذا خسرت الدولة العثمانية معظم أملاكها في البلقان ، فما كان من الدول الأوربية إلا أن تدخلت وطلبت عقد مؤتمر دولي لبحث مقررات صلح سان ستيفانو ، فتم عقد مؤتمر دولي باشتراك الدول الأوربية الكبرى عرف باسم مؤتمر برلين .

مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ :

شاركت بذلك المؤتمر كل من روسيا ، فرنسا ، إيطاليا ، النمسا ، ألمانيا وبريطانيا ، وأهم ما جاء بالمؤتمر :

١- التأكيد على استقال رومانيا ، صربيا والجبل الأسود .
٢- تراجع روسيا عن المناطق التي حصلت عليها في صلح سان ستيفانو .
٣- وضع إمارتي البوسنة والهرسك تحت إدارة النمسا على أن تبقيا تابعتين للدولة العثمانية .
٤- إغلاق المضائق العثمانية في وجه جميع السفن الحربية لجميع الدول الأوربية .

وبذلك خسرت روسيا معظم مكاسبها التي حصلت عليها سابقًا في صلح سان ستيفانو .

المحاضرة الحادي عشر

سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الداخلية

السلطان عبد الحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية . تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره . إذ ولد عام ١٨٤٢ ، وتلقى عبد الحميد تعليماً منتظماً في القصر السلطاني على أيدي نخبة مختارة من أشهر رجالات زمنه علماً وخلقاً ، وقد تعلم من اللغات العربية والفارسية ، ودرس التاريخ وأحب الأدب ، وتعمق في علم التصوف ، ونظم بعض الأشعار باللغة التركية العثمانية .

تولى العرش بعد أخيه مراد الخامس في ٣١ آب عام ١٨٧٦ وكان عمره آنذاك اربعاً وثلاثين عامًا ، وحضر لمبايعته الوزراء والأعيان وكبار الموظفين من مدنيين وعسكريين في سراي طوبقبو . وهنأه بالخلافة كذلك رؤساء الطوائف المختلفة ، وأطلقت المدافع بسائر أطراف السلطنة احتفالاً بهذه المناسبة ، وأقيمت الزينات بجميع جهات استانبول ثلاثة أيام وأرسل الصدر الأعظم برقيات الى دول العالم لإعلامها بذلك .

وكان السلطان عبدالحميد قد عين مدحت باشا صدراً أعظم ، ثم أعلن في ٢٣ كانون الأول عام ١٨٧٦ الدستور الذي ضمن الحريات المدنية ونص على مبدأ الحكومة البرلمانية ، وتكون ذلك الدستور من مجلسين : مجلس النواب أو المبعوثان ثم مجلس الأعيان أو الشيوخ .

تعرض السلطان عبد الحميد في بداية حكمه الى استبداد الوزراء واشتداد سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد والتي كانت تضم النخبة المثقفة

التي تأثرت بالغرب والتي استطاعت الأيدي الماسونية تجندهم لخدمة أهدافها ، وكان مدحت باشا رئيسًا لتلك النخبة ، وقد اتهم الأخير بقتل السلطان عبد العزيز ، فشكل السلطان عبد الحميد لجنة للتحقيق في ذلك ثم قدم المتهمون الى المحكمة التي أدانتهم وحكم على مدحت باشا بالإعدام ، فتدخل السلطان عبد الحميد وخفف الحكم الى السجن ثم النفي الى الحجاز حيث مقر السجن العسكري هناك .

كانت سياسة مدحت باشا والنظام الدستوري قد جرت الدولة العثمانية إلى الدخول في حرب خاسرة مع روسيا وأمارات البلقان عام ١٨٧٧ كبدت السلطنة ثمنًا باهضًا ، الأمر الذي دفع السلطان عبد الحميد الثاني إلى حل البرلمان وتعليق العمل بالدستور عام ١٨٧٨ ، ثم شرع في إصلاح الدولة وفق التعاليم الاسلامية لمنع التدخل الأوربي في شؤون الدولة وحرص على تطبيق الشريعة الاسلامية ، وقام بإبعاد الكتّاب والصحفيين عن العاصمة وقاوم كافة الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الاسلامية في ولايات الدولة ، واستطاع أن يشكل جهاز استخباراتي قوي لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه في الخارج ، واهتم بفكرة الجامعة الاسلامية وحقق بها نتائج عظيمة واهتز الأوروبيون من هذا التفكير الاستراتيجي العميق وعملوا على تفتيتها .

سياسة الجامعة الإسلامية :

نتيجة لتدهور أوضاع الدولة العثمانية ازداد تكالب الدول الغربية على اقتسام أملاكها ، فقد احتلت بريطانيا قبرص عام ١٨٧٨ بعد مؤتمر برلين ، ومن ثم احتلت مصر عام ١٨٨٢ ، فيما غزت فرنسا تونس عام ١٨٨١ ، مما دفع السلطان عبد الحميد الثاني إلى تفعيل لقب الخلافة لمواجهة التحديات الجديدة ، وعمل على إنشاء الجامعة الاسلامية بغية تجميع كافة المسلمين من حوله في الداخل والخارج .

ومما لا شك أن حركة الجامعة الاسلامية قد لاقت استحساناً وقبولاً لدى المسلمين وتدعيم أواصر الأخوة الاسلامية بين كل مسلمي العالم في الصين والهند وأواسط أفريقيا وغيرها ، والذين اعتقدوا أن ضعف الدولة العثمانية مرجعه ضعف الشعور الديني عند المسلمين ، الأمر الذي دفع فيه أعداء الاسلام للزحف على دار الاسلام ونهبها بلداً تلو الآخر .

كانت فكرة الجامعة الاسلامية في نظر السلطان عبد الحميد يمكن أن يحقق بها هدفين أساسيين :

١- تثبيت دولة الخلافة في الداخل ضد الحملات القومية التغريبية الماسونية اليهودية الاستعمارية النصرانية .

٢- وفي الخارج تلتف حول راية الخلافة جموع المسلمين الخاضعين للدول الأوروبية كروسيا وبريطانيا وفرنسا . وبذلك يستطيع أن يجابه تلك الدول ويهددها بإثارة المسلمين وإعلانه الجهاد عليها في جميع أنحاء العالم الاسلامي .

ولذلك سخر السلطان عبد الحميد كل الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت من اتخاذ الدعاة من مختلف جنسيات العالم الاسلامي في مجالات السياسة ، والدعاة الذين يمكن أن يذهبوا الى أرجاء العالم الاسلامي المختلفة للالتقاء بالشعوب الاسلامية وفهم ما عندهم وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السلطان الخليفة ونشر العلوم الاسلامية ، واتخاذ اللغة العربية لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية لغة للدولة أو ما يسمى بالتعبير المعاصر "تعريب" الدولة العثمانية ، ولقد ألتفت مجموعة من العلماء ودعاة الأمة الاسلامية الى دعوة الجامعة الاسلامية من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومصطفى كامل من مصر ، وأبي الهدى الصيادي من سوريا ، وعبد الرشيد إبراهيم من سيبريا ، والحركة السنوسية في ليبيا وغيرهم .

خط سكة حديد الحجاز :

عمل السلطان عبدالحميد على كسب الشعوب الاسلامية عن طريق الاهتمام بكل مؤسساتها الدينية والعلمية والتبرع لها بالأموال والمنح ورصد المبالغ الطائلة لإصلاح الحرمين وترميم المساجد وزخرفتها ، وأخذ السلطان يستميل إليه مسلمين العرب بكل الوسائل ، فكون له من العرب حرساً خاصاً وعين بعض الموالين له منهم في وظائف كبرى منهم عزت باشا العابد –من أهل الشام– الذي نجح في أن ينال أكبر حظوة عند السلطان عبد الحميد وأصبح مستشاره في الشؤون العربية ، وقد لعب دوراً هاماً في مشروع سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق الى المدينة المنورة وهو بهذا المشروع الذي اعتبره السلطان عبد الحميد وسيلة من والسائل التي أدت لأعلاء شأن الخلافة ونشر فكرة الجامعة الاسلامية .

لقد أبدى السلطان عبد الحميد اهتماماً بالغاً بإنشاء الخطوط الحديدية في مختلف أنحاء الدولة العثمانية مستهدفاً من ورائها تحقيق ثلاثة أهداف هي :

١– ربط أجزاء الدولة المتباعدة مما ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية والجامعة الاسلامية والسيطرة الكاملة على الولايات التي تتطلب تقوية قبضة الدولة عليها .

٢– إجبار تلك الولايات على الاندماج في الدولة والخضوع للقوانين العسكرية التي تنص على وجوب الاشتراك في الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال .

٣– تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة في أية جبهة من الجبهات التي تتعرض للعدوان لأن مد الخطوط الحديدية ساعد على سرعة توزيع القوات العثمانية وإيصالها الى الجبهات .

وكانت سكك حديد الحجاز من أهم الخطوط الحديدية التي أنشأت في عهد السلطان عبد الحميد ، ففي سنة ١٩٠٠ بدأ بتشييد خط حديدي من دمشق الى المدينة للاستعاضة به عن طريق القوافل الذي كان يستغرق من المسافرين حوالي أربعين يوماً ، وطريق البحر الذي يستغرق حوالي أثنى عشر يوماً من ساحل الشام الى الحجاز ، وكان يستغرق من المسافرين أربعة أو خمسة أيام على الأكثر ، ولم يكن الغرض من إنشاء هذا الخط مجرد خدمة حجاج بيت الله الحرام وتسهيل وصولهم الى مكة والمدينة وإنما كان السلطان عبد الحميد يرمي من ورائه أيضاً الى أهداف سياسية وعسكرية ، فمن الناحية السياسية خلق المشروع في أنحاء العالم الاسلامي حماسة دينية كبيرة إذ نشر السلطان على المسلمين في كافة أنحاء الأرض بياناً يناشدهم فيه المساهمة بالتبرع لإنشاء ذلك الخط ، وفي آب سنة ١٩٠٨ وصل الخط الحديدي الى المدينة المنورة وكان مقررًا أن يتم مده الى مكة لكن العمل توقف فيه بعد ذلك .

المحاضرة الثانية عشر

سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الخارجية

السلطان عبد الحميد الثاني والحركة الصهيونية:

استطاع زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية تيودر هرتزل أن يتحصل على تأييد أوربي للمسألة اليهودية من الدول (ألمانيا، وبريطانيا وفرنسا) وجعل من تلك الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبد الحميد وطلب فلسطين منه ، وكانت الدولة العثمانية تعاني من مشاكل مالية متعددة ، إذ كانت الأحوال الاقتصادية في البلاد على درجة من السوء بحيث فرضت الدول الأوربية الدائنة وجود بعثة مالية أوربية في تركيا العثمانية للإشراف على أوضاعها الاقتصادية ضماناً لديونها ، الأمر الذي دفع عبد الحميد الثاني أن يجد حلاً لتلك المعضلة .

كانت تلك الثغرة هي السبيل الوحيد أمام هرتزل كي يؤثر على سياسة السلطان عبد الحميد الثاني تجاه اليهود ، وفي هذا الصدد قال هرتزل في مذكراته: (علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية في تركيا ... مليونان منها ثمناً لفلسطين والباقي لتحرير تركيا العثمانية بتسديد ديونها تمهيداً للتخلص من البعثة الأوربية ...ومن ثم نقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأي قروض جديدة يطلبها .

لقد أجرى هرتزل اتصالات مكثفة مع المسؤولين في ألمانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا وإنكلترا كانت الغاية من منها إجراء حوار مع عبد الحميد الثاني ، ففي حزيران عام ١٨٩٦ قام هرتزل بزيارة استانبول برفقة صديقه اليهودي نيولنسكي رئيس

تحرير (بريد الشرق) الذي كانت له علاقة ودية مع السلطان عبد الحميد ، ونتيجة لذلك فقد نقل نيولنسكي آراء هرتزل الى قصر يلدز ، إذ دارت محاورة بين نيولنسكي والسلطان عبد الحميد قال السلطان له : (هل بإمكان اليهود أن يستقروا في مقاطعة أخرى غير فلسطين؟ أجاب نيولنسكي قائلاً:

(تعتبر فلسطين هي المهد الأول لليهود، فعليه فإن اليهود لهم الرغبة في العودة إليها)، ورد السلطان قائلاً : (إن فلسطين لا تعتبر مهداً لليهود فقط ، وإنما تعتبر مهداً لكافة الأديان الأخرى). أجاب نيولنسكي قائلاً : (في حالة عدم استرجاع فلسطين من قبل اليهود فإنهم سوف يحاولون الذهاب وبكل بساطة الى الارجنتين) .

وقام السلطان عبد الحميد بإرسال رسالة الى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها : (انصح صديقك هرتزل أن لا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع ، لأني لا استطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة ، لأنها ليست ملكي بل هي ملك شعبي . وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ، ورووها بدمائهم ؛ فليحتفظ اليهود بملاييينهم . إذا مزقت دولتي ، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل ، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتنا ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة) .

وبعد إخفاق جهود هرتزل في واسطة نيولنسكي اتجه هرتزل الى وليم الثاني إمبراطور ألمانيا ، ولاسيما أنه كان صديقاً لعبد الحميد ، بالإضافة الى كون وليم الثاني هو الحليف الوحيد للعثمانيين في أوربا ، إلا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح ، وإزاء ذلك الاخفاق قرر هرتزل أن يستخدم وسائل أخرى لاستمالة السلطان عبد الحميد الثاني ، حيث عرض عن طريق نيولنسكي خدمته لحل القضية الأرمنية ، وعلى هذا الأساس فقد نشطت الدبلوماسية الصهيونية لإقناع الأرمن بالتخلي عن ثورتهم ، ثم حاول هرتزل لقاء عبد الحميد الثاني ، ولاسيما أثناء الزيارة الثانية

للإمبراطور وليم الثاني الى استانبول عام ١٨٩٩ ، إلا أن موظفي قصر يلدز منعوه من ذلك . واستمر هرتزل في محاولاته المستمرة حتى تكللت جهوده بالنجاح بعد سنتين عام ١٩٠١ من مقابلة عبد الحميد ، إذ قابل السلطان لمدة ساعتين وقد اقترح هرتزل قيام البنوك اليهودية الغنية في أوروبا بمساعدة الدولة العثمانية لقاء السماح بالاستيطان في فلسطين ، بالإضافة الى ذلك فإنه قد أكد لعبد الحميد أنه سوف يخفف الديون العامة للدولة العثمانية ابتداءً من عام ١٨٨١ ، كما وعد هرتزل السلطان أن يحتفظ بمناقشاته السرية معه .

كان السلطان عبد الحميد في خلال مقابلته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً ، وكان يرخي لهرتزل في الكلام كي يدفعه لتحدث بكل ما يخطر في مخيلته من أفكار ومشروعات ومطالب . وقد أدى هذا الأمر الى أن يعتقد هرتزل بأنه نجح في مهمته تلك . ولكنه أدرك في نهاية الأمر بأنه قد أخفق مع عبد الحميد وأنه أخذ يسير في طريق مسدود معه .

وبعد اخفاق جهود هرتزل عند السلطان عبد الحميد ، كتب هرتزل قائلاً : (أقر على ضوء حديثي مع السلطان عبد الحميد الثاني أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية أو عن طريق الزج بها في حروب تهزم فيها ، أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية أو بالطريقتين معاً في آن واحد) ، واتخذ السلطان عبد الحميد الثاني كل التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي الى اليهود في فلسطين ، وفي سبيل ذلك عمل جاهداً على عدم إعطاء أي امتياز للهود من شأنه أن يؤدي الى تغلب اليهود على أرض فلسطين . ولابد في هذه الحالة أن تتكاتف جهود المنظمات الصهيونية بغية إبعاد السلطان عبد الحميد الثاني من الحكم ، ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال : (إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين ، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة ، ما دام السلطان عبد

الحميد قائماً في الحكم مستمراً فيه) .

تحركت الصهيونية العالمية لدعم أعداء السلطان عبد الحميد الثاني ، وهم المتمردون الأرمن ، والقوميون في البلقان ، وحزب الاتحاد والترقي ، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية .

السلطان عبد الحميد الثاني وجمعية الاتحاد والترقي:

كان الشباب العثماني المثقف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد تأثر بأفكار الثورة الفرنسية ، التي حققت حكماً ديمقراطياً في فرنسا وأتت بأفكار القومية والعلمانية والتحرر من حكم الفرد ، وكذلك تأثر بالحركة القومية الايطالية ، وكانت الدولة العثمانية قد تعرضت لحملات عسكرية واعلامية غرضها إضعاف الدولة ومن ثم العمل على تفتيتها ، وكانت الدول الأوربية تتخذ من أوضاع النصارى في الدولة حجة للتدخل ، وفي تلك الظروف وبالضبط في عام ١٨٦٥ كان ستة من الشباب العثمانيين المثقفين يُسرُّون عن أنفسهم في حديقة في ضواحي استانبول تسمى (غابة بلغراد) . تحدث هؤلاء الشباب في موضوعات سياسية ، وخرجوا بفكرة تكوين جمعية سرية ، على نمط جمعية (إيطاليا الفتاة) التي أسسها الزعيم الايطالي (ماتزيني) عام ١٨٣١ بهدف الوحدة الايطالية تحت راية الجمهورية ، وأطلق هؤلاء الشباب على جمعيتهم هذه اسم (اتفاق الحميّة) _ أو تركيا الفتاه فيما بعد _ ومن ضمن هؤلاء الشبان نامق كمال ، ومحمد ضياء وعلي سعاوي ، وألتحق أولئك ثلاثة بالأمير المصري مصطفى فاضل في باريس وكونوا منظمة أسموها جمعية "العثمانيين الجدد" .

بعد أن وجد السلطان عبد الحميد أن جماعة العثمانيين الجدد بقيادة مدحت باشا تمارس ضغطاً متواصلاً لقبول أفكارها ، وأجبرته على دخول الحرب العثمانية

الروسية ، عمل على تشتيت أعضاء هذه الجمعية ؛ فبدأ بنفي كبيرها وهو الصدر الأعظم مدحت باشا ، وبعد ذلك مباشرة قامت ضد السلطان مؤامرتان لخلعه واحدة : بقيادة علي سعاوي وهو من أعضاء هذه الجمعية . والاخرى : ماسونية قامت بها جميعة كلانتي سكالييري – عزيز ، والمؤمرتان مدعومتان من بريطانيا ، وفشلت كلتاهما ، لكنهما جعلت السلطان يتشدد في مراقبة الفكر الوافد والمتأثرين به .

وفي عام ١٨٨٩ تأسست منظمة طلابية في المدرسة العسكرية الطبية في استانبول ، حيث كان بعض الأساتذة هناك يحرضون الطلاب بشكل أو بآخر للقيام بمعارضة الحكم ، ونشر أفكار العثمانيين الجدد بين الطلاب ، وكان المؤسس لتلك المنظمة إبراهيم تيمو الروماني الذي تأثر بالمحافل الماسونية الإيطالية وأطلق على هذه المنظمة الاتحاد العثماني واختاروا يوم الاحتفال بذكرى الثورة الفرنسية المئوية تاريخاً لإنشاء منظمتهم وجعلوا من أهدافهم مقاومة حكم السلطان عبد الحميد وتكوين دولة مناسبة لأفكار العصر السياسية تتخذ من الدول الغربية نموذجاً لها مثل إنكلترا وفرنسا ألمانيا ، والمناداة بالدستور والحرية والديمقراطية ، ومن المدرسة العسكرية الطبية انتشرت أفكار جمعية (الاتحاد العثماني) الى مختلف المدارس العليا الأخرى ، وكانت خلايا جمعية الاتحاد هذه سرية على نظام جمعية (الكاربوناري) الإيطالية .

ونتيجة للمراسلات السرية بين أعضاء جمعية الاتحاد العثماني السرية في الداخل وفي الخارج تم الاتفاق على وحدة العمل العسكري والمدني ضد السلطان ، وعلى اعتماد اسم (جمعية الاتحاد والترقي) للجناحين المعارضين العسكري والمدني اللذين يعملان في إطار الجمعية ، وقد تغلغلت خلايا (الاتحاد والترقي) في وحدات الجيش وبين موظفي الدولة من المدنيين ، واتحدا في العمل الموحد بعد اتفاق جناحيهما العسكري والمدني في باريس للعمل الفعلي ضد السلطان عبد الحميد ، واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان في ٢٤ تموز ١٩٠٨ على إعلان

الدستور الذي كان قد أمر سابقاً عام ١٨٧٧ بوقف العمل به .

كان الفكر السياسي لجمعية الاتحاد والترقي يؤكد على المفاهيم الطورانية على المستويين الداخلي والخارجي ، والطورانية تسمية تشير الى وطن الأتراك الأصلي ونسبته الى جبل توران الواقع في المنطقة الشمالية الشرقية في إيران ، وكان تأثير اليهود على الطورانية أمر واضح ، بل كان لهم اسهامًا كبيرًا في نشاء جمعية الاتحاد والترقي ، فبمجرد أن نجحت هذه الجمعية في الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد واستولت على السلطة تقدم الصهاينة الى الاتحاديين برغبتهم في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطناً قومياً لليهود .

كانت هناك عدة أسباب جعلت من جميعه الاتحاد والترقي أن تبقي السلطان عبد الحميد الثاني في تلك الفترة على العرش منها :

١- لم تكن في حوزة الاتحاد والترقي القوة الكافية بعزله في عام ١٩٠٨ .

٢- اتباع عبد الحميد الثاني سياسة المرونة معهم ، وذلك بتنفيذ رغباتهم بإعادة الدستور .

٣- ولاء العثمانيين لشخص السلطان عبد الحميد وهذه النقطة واضحة ، إذ أن لجنة الاتحاد والترقي لم تكن لها الجرأة الكافية على نشر دعايتها ضد السلطان عبد الحميد الثاني بين الجنود ، لأن هؤلاء كانوا يبجلون السلطان .

لم يقتصر دور الصهيونية العالمية على الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨ ، بل تعاونت مع جمعية الاتحاد والترقي لتحقيق مكاسب أخرى في فلسطين ، وعليه كان لابد من التخلص من السلطان عبد الحميد الثاني نهائياً لذلك دبرت أحداث في ٣١ نيسان عام ١٩٠٩ في استانبول وترتب على أثرها اضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية الاتحاد والترقي ؛ وعرف الحادث في التاريخ باسم حادث ٣١ مارت .

وقد حدث هذا الاضطراب الكبير في العاصمة بتخطيط أوربي يهودي مع

رجال الاتحاد الترقي وتحرك على أثره عسكر الاتحاد والترقي من سالونيك ودخل استانبول ، وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني من كل سلطاته المدنية والدينية ، ثم وجهت إليه جمعية الاتحاد والترقي التهم التالية :

١- تدبير حادث ٣١ مارت .

٢- إحراق المصاحف .

٣- الإسراف .

٤- الظلم وسفك الدماء .

ومع أن جمعية الاتحاد والترقي تبنت الأفكار الغربية المضادة للإسلام وللفكر الاسلامي ؛ لكنها استغلت الدين عند مخاطبتها للناس للتأثير فيهم ، وكسب أنصار لهم في معركتهم ضد السلطان عبدالحميد الثاني وقد نجحوا في ذلك .